

التاريخ الجامع لهيرودوت

بقلم: أ. فاروق فرسي

ظروف بلاد اليونان الجغرافية . فتعدد سلاسل الجبال وامتدادها طولا وعرضا ، وقلة الأمطار وندرة السهول الخصبة أجبرت كل جماعة أو عدة قبائل يربطها رباط الدم على الاستيطان فى بقعة محدودة من الأرض يعزلها الجبل والبحر . وبمرور الزمن خلق هذا الاستيطان الانعزالي مراكز عديدة مستقلة ذاتيا ، توجه سياستها واقتصادها وفقا لامكانياتها ومواردها وقد عرفت هذه المراكز المستقلة « بالمدن الدول » أو « الدويلات » . وكانت هذه الانفصالية سياسية فحسب ، تضمن لكل دويلة استقلالها الذاتى ، ولم يحدث أن وحد عاهل دويلات اليونان وجمع شملها فى دولة واحدة حتى عصر الاسكندر الأكبر . ولكن ان لاح خطر يهدد بلاد اليونان ، تذوب هذه الانفصالية وتتألف كل الدويلات كأبناء جنس واحد لتصد هذا الخطر ، مثلما حدث فى حرب طروادة وفى غزوة الفرس التى عاصرها هيرودوت .

وكانت هاليكارناسوس مسقط رأس هيرودوت دويلة يونانية دورية يحكمها طغاة مستبدون ،

يعد هيردوت أول مفكر كرس خبرته وتجاربه للمعرفة الانسانية ، وأول مؤرخ علمى حاول أن يخلق من القصص والأقاويل المتناقلة سلسلة متصلة من الأحداث تربط أسبابها بنتائجها . وهيرودوت يونانى جنسا ولغة ، فقد ولد عام ٤٨٥ ق.م. ببلدة هاليكارنا سوس على جنوب ساحل آسيا الصغرى وكان هذا الساحل يمثل الجزء الشرقى من العالم اليونانى القديم ، بينما كانت أرض اليونان ذاتها جزءه الغربى ، ويربط بينهما بحر ايجه الضيق بجزره العديدة . ورغم هذه الانفصالية الظاهرية بين شقى العالم اليونانى الشرقى والغربى ، كانت وحدة اللغة والجنس عاملا مشتركا بينهما . وهذا ما أدى الى وحدة التراث فالتاريخ ، ثم وحدة المقاييس الأخلاقية والدينية . وقد تعددت لهجات اللغة اليونانية القديمة ، فالشمال يتكلم الأيوليه ، والوسط الأيونية ، والجنوب الذى تنتمى اليه هاليكارناسوس يتكلم الدورية . ولكن غالبا ما سقط حائل اللهجة هذا بفعل التبادل والالتحام . غير أنه كانت هناك انفصالية مقنعة ومزدوجة فرضتها

انحدرت منهم الأميرة «أرتميسيا» حاكمتها في زمن هيرودوت . وقد انضمت هاليكاناسوس الى جزيرة «قبرص» «وكنيدوس» وكونوا حلفا دوريا ، غير أن أعضاء هذا الحلف استبعدوها لتصرف غير لائق بدر من أهلها في أحد الأعياد الدينية . فما كان من هاليكاناسوس الا وألقت بنفسها في أحضان الدويلات الأيونية شمالها حيث كان الفكر أكثر تقدما وتحررا ، مما ساعد على تأثر أهلها بالأفكار الجديدة وأوسع من مداركهم . أما الظروف السياسية والاجتماعية التي تركت أثرا واضحا على فكر هيرودوت فهي تتبلور في الصراع ما بين امبراطورية الفرس ودويلات اليونان . فقبل مولد هيرودوت بعدة أجيال ، شرع الفرس يقيمون امبراطوريتهم حتى امتد نفوذهم الى حدود العالم اليوناني على ساحل آسيا الصغرى . وعلى حين بغته ، اصدم الفرس باليونان عام ٥٤٧ ق.م. عندما

غزا امبراطورهم الأول «قورش» أراضى «ليديا» الليوانية . ولما كانت مملكة «ليديا» هذه تسيطر على كل يونان آسيا الصغرى ، آلت مقادير الأمور في هذه المنطقة الى الغزاة الفرس . واستمر الفرس في توسعهم ليغزوا امبراطورهم الثاني «قمبيز» أرض مصر عام ٥٢٥ ق.م. ، وليضم امبراطورهم الثالث «دارا» جنوب شرق أوروبا حتى الضفة الجنوبية لنهر الدانوب الى ممتلكاته . ولكن في عام ٥٠٠ ق.م. ثار يونان آسيا الصغرى بزعامة بلدة «ملطية» . وظلت نيران هذه الثورة مشتعلة رغم مقاومة الفرس لها حتى عام ٤٩٤ ق.م. عندما تمكنوا من الاستيلاء على بلدة «ملطية» وعاقبوا أهلها ، ولما كانت ثورة الساحل الأيوني هذه قد تلقت المساعدة من دويلة «أثينا» اليونانية ، قرر «دارا» الامبراطور الفارسي غزو هذه

الدويلة حتى يلقنها درسا قاسيا . فجرد حملة بحرية عبرت بحر ايجة عام ٤٩٠ ق.م. ونزلت بسهل «ماراثون» الأثيني . فتصدت لهم القوات الأثينية ، ودافعت عن وطنها دفاعا جنونيا مما أذهل الفرس واضطروهم للفرار . وعندما تربح «كسركييس» ابن «دارا» على عرش فارس ، أراد أن ينتقم من «أثينا» وينتهاز الفرصة ليخضع كل الدويلات اليونانية حتى تتم له السيطرة على العالم اليوناني بشقيه . فأخذ الفرس يعدون العدة لهذه الحملة طوال عشر سنوات ، جندوا لها . كل شعوب الشرق القديم الخاضعة لهم ، بما في ذلك يونان آسيا الصغرى . ولما كانت بلدة هاليكاناسوس خاضعة للفرس ، انضمت حاكمتها «أرتميسيا» بأسطولها الى أساطيل الفرس . وفي عام ٤٨٠ ق.م. عبر «كسركييس» الدردنيل الى أوروبا ، وعلمت الدويلات اليونانية بنأ الغزو الفارسي ، فسارع بعضها بالانضمام للفرس لسبب أو لآخر ، بينما عقدت الدويلات الأخرى مؤتمرا لتقرر مصيرها وتحصى امكانياتها . وبعد مناورات سياسية ملتوية ، وتكاسل بعض الدويلات ، واجهت أثينا الفرس وحدها واستطاعت أن تهزمهم هزيمة منكرة في معركة «سالاميس» البحرية وتحطم أساطيلهم . فانسحب كسركييس بقواته من بلاد اليونان ، بينما عاد ما تبقى من الأساطيل ، كل الى بلده . ووقف هيرودوت وهو في الخامسة من عمره يرقب عودة أسطول بلده هاليكاناسوس بقيادة أرتميسيا الحاكمة وقد تحطمت جوانبه وانكسرت قلاعها .

لقد اهتز العالم اليوناني طربا لاتنصار «أثينا» على الفرس ، حتى أولئك الذين أجبرهم النرس على الانضمام لجيوشهم ومحاربة بني جنسهم . وأصبحت

أثينا رمزا للحرية ومحركا لوطنية اليونان وقوميتهم .. فسرعان ما تارت المدن اليونانية على ساحل آسيا الصغرى في وجه الفرس ، وحدث أثينا تمدد كل منها بالمساعدات حتى تمكنت من صرد حدامها الموالين للفرس وحصلت على حريتها . وتشارت هاليكارناسوس بلدة هيرودوت في موكب الحرية هذا لتعلن عن سخطها في وجه طاغيتها «ليجداميس» حفيد «أرتيميسيا» وعميل الفرس . وكان هيرودوت قد بلغ مرحلة الشباب ولا يزال « ليجداميس » يحكم هاليكارناسوس بالحديد والنار . فلم يحتمل هيرودوت أن تعاني مدينته من استبداد هذا الطاغية بينما تتمتع دويلات اليونان الأخرى بحريتها ، فقاد ثورة قومية ضد هذا الطاغية ، وازداد حماسة من اشتعالها حتى ذاع صيته . ولكن حصل الطاغية على مساعدات من الفرس ، وتمكن من اخماد الثورة . ففر هيرودوت من هاليكارناسوس ولجأ الى جزيرة ساموس عام ٤٦١ ق.م. ليقضى بعض الوقت بها بين حفاوة أهلها وتكريمهم له .

وهكذا كتب على هيرودوت وهو في الخامسة والعشرين من عمره أن يصبح لاجئا سياسيا . وما كنا لتتوقع منه أن يقبع ساكنا وبداخله حرارة الشباب وروح اليوناني المغامر التي تنوق الى السعى وراء المعرفة . فقرر أن يكتب كتابا يجمع فيه كل ما يتصل بالحرب بين الفرس واليونان ، تلك الحرب التي كان لا تنصار أثينا فيها أن يجلب الحرية والكرامة للجنس اليوناني . فشرع يقوم برحلات واسعة النطاق ليجمع مادته ويبحث عن أصل الأحداث في مواطنها وامتدت أسفاره من البحر الأسود والدانوب شمالا حتى أسوان جنوبا ، ومن الهند شرقا حتى قورنائية وليبيا غربا . وما من شك أن اعجابنا بمجهود هيرودوت وصلابته يزداد قدرا

لو وضعنا في اعتبارنا ظروف العالم القديم في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . فبالطبع لم يكن التقدم العلمي قد بلغ مرحلة تكفل للمسافر يسر التنقل وسرعته ، ذلك بالإضافة الى نزوله بين شعوب لا يعرف لغتها وطبعاها ، والى بعض مشكلات لا نشعر بها نحن المحدثين ، كالمعاملات النقدية والعثور على دواب الانتقال وأماكن المبيت وغيرها . ورغم كل هذه المشاق قام هيرودوت بأسفاره الواسعة ساعيا وراء الحقيقة التاريخية ، وكاشفا عن جوهر الأحداث وأطوارها . فقد أبحر من جزيرة ساموس عام ٤٦٠ ق.م. ليقوم برحلة طالت حتى عام ٤٥٧ ق.م. زار فيها « سارديس » عاصمة الفرس الغربية ونزل ببعض مدن آسيا الصغرى الأيونية التي ترتبط بتاريخ الحروب الفارسية ، واتجه جنوبا الى مدينة صور ونهر الكلب فعسقلان ثم وصل الى غزه فشمال مصر عن طريق البحر حيث تجول بمنطقة الدلتا ، وتوغل غربا حتى منطقة ليبيا وبلدة قورنائية . وبعد أن ألم هيرودوت بأحوال الشواطئ الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض اتجه شمالا ليقوم برحلته الثانية بين عام ٤٥٧ ، ٤٥٥ ق.م. التي خصصها لزيارة منطقة المضيقين والبحر الأسود وما حولهما من شعوب وأقوام : سكيثيا ، كولخيس سيجيوم ، بيزانطيوم ، خالكديكي ، مقدونيا .

وفي عام ٤٥٤ ق.م. احتدم الصراع في بلده هاليكارناسوس بين طاغيتها ليجداميس وبين جماهير الشعب الثائرة . وحصلت القوى الثورية فيها على مساعدة « أثينا » وتأييدها ، فتمكنت من خنق هذا الطاغية ، ثم اعتنقت الديمقراطية وانضمت لحلف «ديلوس» الذي يتألف من الدويلات اليونانية الحديثة التحرر تحت زعامة أثينا . وما ان حلت هذه التطورات بهاليكارناسوس ، حتى سارع

هيرودوت بالعودة الى مسقط رأسه وكله أمل وحماس . ولكن لم يمض وقت طويل الا وكان انشقاق قد دب بين هيرودوت وساسه مدينته . فقد لان مؤمنا بديمقراطية أثينا ، ومؤيدا لسياساتها ومنتحسا لها في وقت كانت غالبية الدويلات اليونانية تحقد عليها وتتحين الفرصه لتتخلص منها . ولا نعلم بالضبط نوع الشقاق وأسبابه وان كان يبدو أن تحسه لأثينا قد لعب دورا بارزا فيه . وعلى أية حال ترك هيرودوت هاليكارناسوس عام ٤٥٠ ق م وذهب الى أثينا حيث استقبله شعبها استقبالا حافلا يليق به كرجل من المناضلين الأحرار ، واندمج هو في زمرة مفكريها وساستها ليصبح صديقا حميما للشاعر المسرحي « سوفوكليس » . وفي عام ٤٤٧ ق م . عقد الملك الفارسي اتفاقية السلام مع اليونان ، فتحين هيرودوت هذه الفرصة ليقوم بزيارة الأراضي التي لم يتمكن من زيارتها من قبل لوقوعها تحت النفوذ الفارسي . فقام بزيارة ثانية لمصر ، وقضى بها وقتا طويلا متنقلا بين مدنها وآثارها حتى وصل الى أسوان . وفي عام ٤٤٥ ق م . عاد هيرودوت الى أثينا التي كانت قد استحوذت على كيانه وخبث لبه بوصفها الدولة اليونانية المثالية . وكان قد قطع شوطا كبيرا في كتابة تاريخه الجامع ، فقرأ بعض فقرات منه على الجمهور الأثيني حازت القبول وأثنى عليه المفكرون والساسة ، وكرمه الدولة الأثينية بمرسوم رسمي أصدره مجلسها ، منح بمقتضاه جائزة مالية لما أسهم به في الفكر الانساني . وقد أفادته هذه الزيارة الثانية لأثينا افادة جمة .

اذ توطدت الصلة بينه وبين الزعيم الديمقراطي والمفكر السياسي بركليز مما وسع مداركه السياسية ومفاهيمه عن فلسفة الحكم ، كما أطلعه على أسرار السياسة وخبايها . وفي عام ٤٤٣ ق م . ناشد هيرودوت بالعودة الى مسقط رأسه وكله أمل وحماس . ولكن لم يمض وقت طويل الا وكان انشقاق قد دب بين هيرودوت وساسه مدينته . فقد لان مؤمنا بديمقراطية أثينا ، ومؤيدا لسياساتها ومنتحسا لها في وقت كانت غالبية الدويلات اليونانية تحقد عليها وتتحين الفرصه لتتخلص منها . ولا نعلم بالضبط نوع الشقاق وأسبابه وان كان يبدو أن تحسه لأثينا قد لعب دورا بارزا فيه . وعلى أية حال ترك هيرودوت هاليكارناسوس عام ٤٥٠ ق م وذهب الى أثينا حيث استقبله شعبها استقبالا حافلا يليق به كرجل من المناضلين الأحرار ، واندمج هو في زمرة مفكريها وساستها ليصبح صديقا حميما للشاعر المسرحي « سوفوكليس » . وفي عام ٤٤٧ ق م . عقد الملك الفارسي اتفاقية السلام مع اليونان ، فتحين هيرودوت هذه الفرصة ليقوم بزيارة الأراضي التي لم يتمكن من زيارتها من قبل لوقوعها تحت النفوذ الفارسي . فقام بزيارة ثانية لمصر ، وقضى بها وقتا طويلا متنقلا بين مدنها وآثارها حتى وصل الى أسوان . وفي عام ٤٤٥ ق م . عاد هيرودوت الى أثينا التي كانت قد استحوذت على كيانه وخبث لبه بوصفها الدولة اليونانية المثالية . وكان قد قطع شوطا كبيرا في كتابة تاريخه الجامع ، فقرأ بعض فقرات منه على الجمهور الأثيني حازت القبول وأثنى عليه المفكرون والساسة ، وكرمه الدولة الأثينية بمرسوم رسمي أصدره مجلسها ، منح بمقتضاه جائزة مالية لما أسهم به في الفكر الانساني . وقد أفادته هذه الزيارة الثانية لأثينا افادة جمة .

« بركليز » خطيبا بين شعبه ليعلم الحرب على « اسبرطه » وحلفائها . ومم العام الأول من تلك الحرب المعروفة « بالحروب البلوبونيزيه » هادئا الا من بعض الاحتكاكات الطفيفة والمناورات البحرية . وفي عام ٤٣٠ ق.م. نزلت كارثة على أثينا نزول الصاعقة ، اذ تفشى الطاعون بها ، وذهب بحياة المئات من أهلها ، وأضعف مواردها وأهلك ثروتها الحيوانية . كما أخذ حلفاؤها يتمرّدون عليها الواحد تلو الآخر وبنقلبون ضدها حتى غدت المدينة الظافرة حامية حمى اليونان وحاملة مشعل الحضارة غدت شبح مدينة كتيبة يحوم الموت حولها ويهيمن الجوع والمرض عليها . واهتزت مشاعر هيرودوت وهو في جنوب ايطاليا لمصير مدينته الحبيبة ومثله الأعلى ، تلك التي اتخذت من تاريخه الجامع وسيلة ليمجدها ويتغنى بأمجادها . ولم يحتمل البقاء بعيدا بينما تعاني أثينا وحدها ، فشد رحاله مسرعا اليها ليجدها خاوية خاملة وقد فقدت أباه الروحي وزعيمها الحاذق « بركليز » ، اذ فتك به الطاعون . فعكف هيرودوت بنفس جريجه على اكمال تاريخه الجامع الذي أهمله طوال فترة اقامته في « ثورئي » ويبدو أن هيرودوت كان يتعجل انهاء كتابه ولم يكن أمامه متسع من الوقت ليراجعه ، اذ نجد به الكثير من التكرار والوعود التي لم ينجزها . وقد كان هيرودوت على حق في تعجله ، فما ان وضع آخر كلمة في تاريخه الجامع حتى انقض عليه الطاعون ليلفظ أنفاسه الأخيرة عام ٤٢٧ ق.م. بين أحضان مدينته الحبيبة ، وليخلده الزمان بوصفه « أبا للتاريخ » والعالم الانساني الرائد .

تاريخه الجامع :

يتألف تاريخ هيرودوت الجامع من تسع كتب، يحمل كل منها اسما من أسماء ربات الشعر

والموسيقى وينقسم الى عدة فقرات مرقمة . وموضوع تاريخه هو الصراع بين الفرس واليونان، يبدؤه بمقدمة يوضح فيها الغرض من كتابته : فقد كتبته « املا أن أحفظ من الزوال ذكرى ما أنجبتة قريحة الرجال من أمجاد ، وحتى أحول دون ضياع تلك الأعمال المجيدة التي قام بها من هم يونان وغير يونان » .

الكتاب الأول : وعنوانه « كليو » :

يسرد هيرودوت الفقرات الست الأولى الأساطير التي تفسر سبب التصادم بين الفرس ، واليونان ، ثم يرفضها كلها بوصفها غير تاريخية ، ويسترسل ليضع يده على السبب التاريخي الفعلي ألا وهو « كريوسوس » اليوناني ملك « ليديا » بساحل آسيا الصغرى ، فقد كان هذا الرجل أول من زج باليونان في هذا الصراع . ولكي يوضح الموقف للقارئ يسرد هيرودوت تاريخ مملكة « ليديا » هذه (فقرات ٧ - ٥٦) اذ يرجع بنا الى أقدم ما أمكنه الحصول عليه من حقائق عن أجداد « كريوسوس » ملوك « ليديا » . فقد أخذ هؤلاء الملوك يوسعون من رقعة نفوذهم حتى أصبح كل يونان آسيا الصغرى خاضعين لنفوذ ليديا . ولما تربع كريوسوس على العرش كان أغنى رجل في العالم لوفرة موارده وكثرة ممتلكاته . غير أنه يتمادى في افترائه حتى وصله أنباء الفرس . فقد أطاح « قورش » الفارسي بملك الميديين وتربع على العرش لتزداد قوته يوما بعد يوم . فخشى « كريوس » أن تمتد أطماع قورش الى أملاكه وقرر القضاء عليه فذهب يسعى للتحالف مع الدويلات اليونانية القوية ، وهي أثينا الأيونية واسبرطة الدورية . وهنا يمسك هيرودوت بطرف الخيط لينقلنا الى حقل التاريخ اليوناني (فقرات ٥٧ - ٦٨)

فهو يظهر لنا الفارق ما بين الأيونيين والدوري ، ثم يشرح الأوضاع التي كانت عليها كل من أثينا واسبرطة في ذلك الوقت اذ كانت أثينا في قبضة حاكمها الطاغية بيستراتوس بينما كانت اسبرطة قد خرجت لتوها ظافرة من حرب مع جارتها « تيجيا » . وقد نجح « كريوسوس » في التحالف مع اسبرطة ، ثم يعود الى « ليديا » ليرى ما فعله (فقرات ٦٩ - ٩١) . فقد جمع جيشه وشن حملة عنيفة على منطقة « كبادوكيا » الخاضعة للفرس آملا أن يلتقي بقورش ويسحقه هناك . ويحدد لنا هيرودوت الأسباب الحقيقية التي دفعت كريوسوس الى شن هجومه على « كبادوكيا » فقد أراد أن يوسع من رقعة نفوذه ، كما ابتغى القضاء على قورش لأن الملك الميدي الذي خلعه كان زوج أخت كريوسوس ، وما ان دخل كريوسوس أرض كبادوكيا حتى استبعد أهلها الأبرياء وحطم منازلهم وخرّب حقولهم . وسرعان ما علم قورش بالأمر ، فأسرع يقود جيشه الى « كبادوكيا » حيث التحم الجيشان بلا جدوى . فعاد كريوسوس الى عاصمته « ارديس » ليدعم قواته . غير أن قورش باغته وهاجمه في « سارديس » مما أربك كريوسوس وأحل ليديا ، وسقطت « سارديس » وخضعت ليديا للفرس . ولم يتمكن الاسبرطيون من ارسال العون لكريوسوس لضيق الوقت ، بينما سقط هو أسيرا في قبضة قورش . ولكن أبقى قورش على حياته بعد أن حاول حرقه فأمرت السماء وانطفت النيران . وهكذا حل الفرس بساحل آسيا الصغرى اليوناني . وفي ذيل هذا السرد يذكر هيرودوت (فقرات ٩٢ - ٩٤) عادات أهل ليديا وطباعهم . ولكن من هو قورش ومن هم الفرس ؟

يسأل هيرودوت هذا السؤال لينقلنا ببراعة فائقة الى ميدان التاريخ الفارسي (فقرات ٩٥ - ١٤٠) فقد أقام الأشوريون امبراطورية واسعة دامت طوال خمسمائة عام الى أن ثار الميديون على سيطرة آشور وحصلوا على حريتهم . فثارت الشعوب الأخرى الخاضعة لأشور ، وما أن حصلت على حريتها حتى سقطت تحت نفوذ الميديين فآلت امبراطورية آشور الى الميديين الذين أوسعوا منها وفرضوا سلطاتهم على الفرس . وتزوجت ابنة ملك الميديين من أحد نبلاء الفرس ولكن يرى أبوها الملك حلما يحذره من الطفل الذي ستلده ابنته ، ولما ولد قورش حاول جده الملك التخلص منه ، غير أنه أفلت من المكائد وشب عوده وأصبح مرموقا بين الفرس بنى جنسه الذين علقوا عليه آمالهم . وبالفعل قاد قورش ثورة الفرس ضد جده ملك الميديين وخلعه ليتربع على العرش ، وآلت امبراطورية الميديين الى الفرس . وبعد هذا العرض لتاريخ الفرس ، يعود هيرودوت الى سارديس ليرى ماحدث بعد أن سقطت في يد قورش (فقرات ١٤١ - ١٧٦) فما ان سقطت مملكة « ليديا » حتى سارعت المدن الايونية بساحل آسيا الصغرى تطلب التحالف مع قورش لتتحاشى بطشه . ولكن رفض قورش مطلبها هذا لأنها لم تنصره عندما حرضها على الثورة في وجه « كريوسوس » وأيقن الايونيون أن قورش يتنوى شن الحرب عليهم ، فأخذوا يحصنون مدنها ، وأرسلوا يطلبون العون من اسبرطة التي أرسلت وفدا الى قورش يطأبه بدم الاعتداء على بلدان أيونيا ، ولكن سحر قورش من وفد اسبرطة هذا وطرده . ثم ترك سارديس بعد أن ولى عليها أحد رجاله ، وذهب ليعد حملة ضد بابل وباكتريا ومصر ،

بينما أسند الى أحد قواده مهمة اخضاع المدن الأيونية على الساحل . وما ان رحل قورش حتى ثار الايونيون في وجه الحاكم الفارسي وحاصروا سارديس . وعلم قورش بأمر هذه الثورة ، فأرسل جيشا ليخمدوها . وهرب الثوار ودخل الجيش الفارسي سارديس وتوعد أهل ليديا بالعقاب ان هم ساندوا أهل أيونيا . ثم أخذ قائد هذا الجيش الفارسي يخضع المدن الأيونية الأخرى ، واستسلم يونان جزر بحر ايجه للفرس خوفا من بطشهم ، وخضعت لهم منطقة كاريا وليكيا بجنوب آسيا الصغرى بينما تولى قورش اخضاع منطقة مضيق البسفور والدرديل . ولما تم له اخضاع كل الساحل ، هم بشن الحرب على بابل (فقرات ١٧٧ - ٢٠٠) وبعد أن يسرد لنا هيرودوت تاريخ بابل ، ترى قورش وهو يستولى عليها ، ثم يشرح لنا عادات أهلها وتقاليدهم ، وينساق قورش وراء شهوة الفتح ليشن حربا على شعب الماساجيتاي (فقرات ٢٠١ - ٢١٦) القاطن حول بحر قزوين . ويصف لنا هيرودوت جغرافية هذا المكان ، ثم تتبّع الحرب بين قورش وبينهم لتنتهى بهزيمة قورش ومقتله . ويختم هيرودوت كتابه الأول بسرد تاريخ شعب الماساجيتاي وأصله وعاداته .

الكتاب الثاني : وعنوانه « ايوتري »

يعد هذا الكتاب أقدم مؤلف تنفرد به مصر . فقد كانت حضارتها حتى في زمن هيرودوت حضارة عريقة ضاربة في القدم . وقد كتبه هيرودوت بعد أن قام بزيارة مصر مرتين (عام ٤٦٠ ، ٤٤٧ ق.م) لذا جاءنا كتابه هذا خلاصة صادقة لمشاهدات مفكر يتمتع بعين ثاقبة . ولما كان هيرودوت بصدد توسع امبراطورية الفرس ، فقد ارتبطت مصر بهذه

الامبراطورية . اذ يبدأ كتابه (فقرة ١) بموت قورش وتولى قمبيز ابنه عرش فارس ، ثم اعداده العدة لينفذ خطة أبيه ويغزو مصر . وهنا يترك هيرودوت قمبيز وفارسي ليتوغل في مصر وتاريخها فهو يقص علينا تجربة (فقرات ٢ - ٣) أجراها الفرعون بسماتيك ليعرف من هم أقدم الأجناس على الأرض . وكان المصريون يعتقدون أنهم أقدم الأجناس ، ولكن بهذه التجربة ثبت أن الفريجين أقدم الأجناس ، يليهم المصريون . ثم يحدثنا هيرودوت عن اختراع المصريين للتقويم الشمسي (فقرة ٤) ويشيد بفضل المصريين في هذا المجال ويعترف بأن تقويمهم أروع وأدق من التقويم اليوناني . وينتقل هيرودوت الى جغرافية مصر (فقرات ٥ - ٣٤) . فمصر هبة النيل الذي يغطي أرضها بالطمي الخصيب . ويبلغ طول شاطئها على البحر الأبيض ٤٢٠ ميلا ، والطريق من البحر حتى هليوبوليس طريق منبسط خال من الينابيع وتكثر به المستنقعات (الدلتا) ، ويبلغ طول هذا الطريق ١٧٠ ميلا . ويضيق وادي النيل تدريجيا من هليوبوليس نحو أعلى النيل . ويحد أرض مصر من جانب التلال العربية (المرتفعات الشرقية) ومن الجانب الآخر التلال الليبية (الصحراء الغربية) أما التلال الأولى فهي تمتد حتى الخليج العربي (البحر الأحمر) أما التلال الأخرى فهي تلال صخرية مغطاة بالرمال . ثم يقدر هيرودوت المسافة من هليوبوليس الى طيبة ، ومن البحر الأبيض الى طيبة ، ثم من طيبة الى الفتين (أسوان) . ويعرب عن اعتقاده بأن المنطقة الشمالية لمصر كانت في وقت ما خليجا للبحر . ثم يحاول هيرودوت معرفة سبب ارتفاع النيل صيفا وانخفاضه شتاء ، على عكس معظم الأنهار الأخرى التي ترتفع في الشتاء بفعل

الأمطار . وبعد سرده لعدة آراء خيالية ورفضه
اياها لكونها غير علمية ، يقدم لنا تفسيره الخاص ،
فالسبب المباشر هو تغير الشمس لمجراها في
الصيف مما يعمل على سرعة التبخر والتكثيف .
ثم ينتقل هيرودوت الى طباع المصريين وعاداتهم
(فقرات ٣٥ - ٩٨) . فالمصريون غير ملزمين
برعاية أولادهم الذكور واعالتهم ، أما الاناث
فيلقن منهم رعاية ورقابة صارمة . والكهنة المصريون
يقصون شعورهم بصفة مستمرة ولا يطلقونها الا
وقت الحداد ، على خلاف الكهنة في كل بقاع
العالم . ويعتبر المصريون أكثر الشعوب تقوى
وورعا ، كما أنهم أنظفهم . فهم دائما يغسلون
أنفسهم وملابسهم ، ويخلق الكهنة شعر أجسامهم
يوميا حتى لا تتسرب الفذارة اليهم . ثم يسرد
هيرودوت طريقة التضحية للآلهة والحيوانات
المحللة والمحرقه . ويعتبر الخنزير أكثر الحيوانات
تحريما لقتل ذارته ، بل وعلى من يلمسه أن يلقي
بنفسه وملبسه في النيل ليتطهر . ثم يقارن بين
الآلهة المصرية واليونانية ، ويعتبر الآلهة المصرية
هي الأصل الذي نبت منه آلهة اليونان ، فالآلهة
مصر عريقة وضاربة في القدم . ويتطرق به الحديث
الى الحيوانات الغريبة عليه بمصر ليصف لنا
التمساح وفرس النهر . أما عاداتهم ، فالمصريون
ينسكون بتقاليدهم وعاداتهم المتوارثة ولا يتبعون
تقاليد أو عادات دخيلة عليهم . وتنتشر بينهم
الأغاني الشعبية التي تعتبر من أبرز تقاليدهم .
وأخلاق المصريين تتصف بالدماثة ، فعندما يلتقى
صغارهم بكبارهم في الطريق ، ينتحون جانبا اجلالا
واحتراما ، بل وينهضون من أماكنهم ان كانوا
جلوسا . وعندما يلتقى المصريون ، يحيون بعضهم
بالانحناء كل أمام الآخر . ويتمتع المصريون بقدرة

خارقة على التنبؤ مستغلين معرفتهم للفلك وحركات
النجوم . أما الطب ، فكل طبيب يتخصص في مرض
من الأمراض ، لذا ينتشر الاطباء المتخصصون بمصر
انتشارا واسعا . ويعتبر التخطيط معجزة الطب
المصرى ، وهناك ثلاث درجات من التخطيط متفاوتة
التكاليف والصنعة . ثم ينتقل هيرودوت الى تاريخ
مصر القديم (فقرات ٩٩ - ١٨٢) . والمصادر
التي يستقى منها معلوماته هي كهنة المعابد في منف
وهليوبوليس وطيبة ، فقد كان هؤلاء الكهنة هم
من يكتبون الحوليات ويسجلون الأحداث . وقد
علم هيرودوت أن أول ملك على مصر كان «مينا»
الذى بنى الجسور ليحمى منف من الفيضان ، كما
شق قناة ليغير مجرى النيل . ثم قرأ له الكهنة
قائمة بأسماء ٣٣٠ ملكا خلفوا مينا ، منهم ١٨ أثيوبيا
وامرأة تدعى نيتوكريس ، والباقي مصريون . وكلهم
غير ذى بال الا آخرهم ، وهو الملك «مويريس»
(أمنمحات) الذى خلف وراءه آثارا عديدة وحفر
بحيرة قارون . وأبرز ملك خلفه كان «سيزوستريس»
الذى كان أول من قاد أسطولا مصرية من الخليج
العربى (البحر الأحمر) الى البحر الأحمر (المحيط
الهندي والخليج العربى) وقد أخضع هذا الملك
شعوبا وقبائل عديدة ، ووصلت فتوحاته الى البحر
الأسود حيث استقر بعض جنوده وانحدر من
سلالتهم أهل «كولخيس» ولما عاد «سيزوستريس»
الى مصر ، استغل الأسرى في العمل الالزامى ، كما
قام بتقسيم أرض مصر الى أجزاء متساوية ووزعها
على الفلاحين ليدفع كل منهم أجرا سنويا نظير
استغلالها ، ومن هنا عرف المصريون علم المساحة
ونقله عنهم اليونان . كما كان «سيزوستريس»
أول وآخر ملك مصرى يفرض سلطاته على أثيوبيا
وقد خلفه عدة ملوك لا أهمية لهم حتى تولى

رامبسينيتوس (رئيس الثاني) العرش ، وقد قام ببناء تماثيل لنفسه بالعين في الضخامة أمام معبده . ثم خلفه « خوفو » الذي انتهج سياسة العنف وأعلق المعابد والأسواق حتى يجبر المصريين على العمل في بناء هرم له . ويصف لنا هيرودوت طريقة بناء الهرم ومساحته وأبعاده . وقد خلفه أخوه خفرع الذي كان على شاكلته ، وبني هرما أصغر حجما من الأول ، وبعده جاء منقرع بن خوفو ، وكان ملكا خيرا ، ترك الناس تزاوّل أعمالها وفتح المعابد وبني أصغر الأهرامات الثلاثة . وخلفه ملك يدعى أسيخيس عالج الكساد في مصر بإصدار عدة قوانين تنظم التجارة والمال . وبعده جاء ملك أسمى يدعى « أنسيس » من مدينة تحمل نفس اسمه . وقد غزا الأثيوبيون مصر في عهده ، وفره هو إلى المستنقعات حيث أصبح ملكا على سكانها . وكان هذا الملك أول من طبق قانون العقوبات . فقد كان يحكم على المجرم بالأشغال الشاقة ليردم المستنقعات بدلا من قتله ، كل حسب جريمته . ولكن طرد المصريون الأثيوبيين بعد خمسين عام ، واستدعوه من المستنقعات ليتربع على العرش مرة أخرى . وبعده استولى كاهن يدعى « سيثوس » على الحكم . ويقول هيرودوت أن الكهنة المصريين أخبروه أنه قد مر ٣٤١ جيلا منذ حكم مينا حتى هذا الكاهن أي حوالي ١١٣٤٠ عاما (وذلك حتى عام ٧٠١ ق م) ولما مات هذا الكاهن ، لم يجد المصريون من يولونه ملكا . فقسموا مصر إلى اثنتي عشرة منطقة يحكم كل منها ملك . وتبادل هؤلاء الملوك التزاوج

(*) يرد ذكر ملوك الأهرامات بعد تاريخهم بالفى عام ، وليس الخطأ من هيرودوت ، بل هو فى الواقع من الناسخ الذى نقل المخطوط من الأوراق البردية إلى الكتيب . فقد كانت طريقة الكتابة على البرديات تتم فى شكل أعمدة أفقية ورأسية مما يدفع الناسخ فى الخطأ ليخلط بين ترتيب الأعمدة .

ليفقوا من ارتباطهم ، لما أقاموا قصر اللايرت (التيه) ليصبح مرثى لهم جميعا . ويعجب هيرودوت بهذا القصر ويصفه وصفا دقيقا هو وبحيره فارون المجاورة له . ولدى اختلاف إسمائكم أحد هؤلاء الملوك مع زملائه وانصر عليهم بمساعدته الإيويين والكاريين . وخلفه ابنه نيخو الذى أعاد حفر قناة إلى البحر كان سنى الأول (١٣٢٦ - ١٣٠٠ ق م) قد حفرها من قبل . ثم خلفه بساميس ، فابنسه ابريس الذى قامت ثورة ضده ، فأرسل قائده أماسيس أحسن ليخدمها . غير أن الثوار توجوا أماسيس ملكا وانتصر على ابريس . وقد كان أماسيس حاكما صالحا ، وصلت مصر فى عهده إلى أوج عظمتها . ويختتم هيرودوت كتابه هذا بقوله : « انه فى عصر أماسيس هذا غزا الفرس مصر . »

الكتاب الثالث : وعنوانه « ثاليا » :

يعود هيرودوت إلى موضوعه الرئيسى ، ألا وهو غزو قمبيز لمصر (فقرات ١ - ٢٤) . فبعد أن استعرض هيرودوت آراء الفرس والمصريين حيال هذا الغزو ، أرجعه إلى حرص قمبيز على تنفيذ سياسة أبيه وانسياقه وراء شهوة الفتح . وعندما بدأ قمبيز غزوته ، كان « أماسيس » ملك مصر قد مات وخلفه ابنه بسامنتيوس . فقاد هذا الملك المصريين وانتظر قمبيز عند فرع النيل الشرقى . غير أن قمبيز هزمه ، فهرب بجيشه إلى قلعة منف . ولكن سرعان ما سقطت القلعة فى يد قمبيز واستولى على مصر . ثم خطط غزوات أخرى ، إذ قرر إرسال أسطول ليغزو قرطاج ، وجزءا من جيشه لاختضاع أهل « آمون » (الصحراء الغربية) بينما يقوم هو بغزو أثيوبيا . ولما كان أسطوله مكونا من الفينيقيين ، فقد رفضوا غزو قرطاج لأنها مستعمرة فينيقية ، كما أن الجيش الذى أرسله إلى أهل

آمون ، ذهب ولم يعد . لذا تركزت جهود قمبيز في غزوه لاثيوبيا ، وارسل جواسيسه اليها . غير أن الاثيوبيين يسخرون منه مما يزيد غضبه ، فيفقد المؤن ويضل الطريق ، فيفقد الأمل ويعود أدراجه . وعندما وصل الى طيبة ، وجد المصريين يحتفلون احتفالا صاخبا لأن الاله ايسس كشف عن ذاته لهم . فظن أنهم فرحون لفشله ، وقتل عددا كبيرا منهم وجرح عجل ايسس في فخذه . وبعد فترة وجيزة أخذت علامات الجنون تظهر عليه . اذ اتابته نوبة من الذعر والخوف ، وأخذ يقتل البارزين من الفرس ، بل وقتل أخاه « سمرديس » وأخته . ولكن في الوقت الذي كان قمبيز يقوم بغزواته هذه ، حدثت تطورات سياسية هامة ببلاد اليونان ، اذ ظهرت « ساموس » على المسرح (فقرات ٣٩ - ٦٠) فقد تولى حكمها رجل قدير يدعى « بوليكراتيس » (عام ٥٣٢ ق ٠ م) . وقد عمل على توسيع رقعة نفوذه وواتاه النجاح الباهر . وامتدت أطماعه الى أبعاد بعيدة حتى انه حالف قمبيز وساعده في غزوته لمصر آملا أن يساعده ذلك العاهل صاحب الامبراطورية الواسعة . ولكن القوات التي أرسلها لتساعد قمبيز في غزو مصر رفضت محاربة المصريين ، وعادت من منتصف الطريق لتحارب « بوليكراتيس » نفسه غير أن بوليكراتيس انتصر عليهم ، فلهجأوا الى أسبرطة يطلبون مساعدتها ، ووافقت أسبرطة وكورثنته على مساعدتهم ، ولكل منهما دوافعه اذ أرادت أسبرطة أن تنتقم من أهل ساموس لاستيلائهم على الهدايا التي كانت قد أهدتها لكريوسوس ، أما كورثنته فقد كانت تكن لساموس عداً مريراً لأنها اختطفت

بعض الشباب من مستعمراتها . فأقلعت الحملة الى ساموس ، وحاصرتها طوال اربعين يوما بلا جدوى . فرجع الاسبرطيون الحصار وعادوا الى بلدهم . ثم يترك هيرودوت ساموس ليعود الى قمبيز وفارس (فقرات ٦١ - ١٥٨) . فبينما كان قمبيز في مصر وقد اختلت قواه العقلية ، ثار ضده في فارس أخوان من الماجوس ، واثحل أحدهما شخصية أخيه « سمرديس » ، معتمدا على أن معظم الناس لا تعلم بموته ، كما كان يحمل نفس الاسم . وترجع سمرديس المدعى على عرش فارس ، وأوفد الى بقاع الامبراطورية يأمر باطاعة أوامره . ووصلت هذه الأنباء الى قمبيز الذي اعتقد أن أخاه لم يمت وأن من كلفهم بالأمر قد خدعوه . فزادت هذه الحادثة من جنونه ، وقاد جيشه الى فارس . غير أنه يسقط من فوق جواده ويصاب في فخذه ، ثم يموت متأثرا بجراحه . وظل هذا الماجوسى متربعا على العرش لثمانية شهور الى أن اكتشف الفرس أمره . فاجتمع سبعة من نبلاء فارس ، من بينهم « دارا » ، وتمكنوا من القضاء على الماجوسى المدعى . ثم اجتمع السبعة ليقرروا شكل الحكم في الامبراطورية ، فمنهم من طالب بتسليم السلطة للشعب ، ومنهم من نصح باتباع الحكم الاوليجركسى غير أن « دارا » نصح باتباع الحكم الفردى الاستبدادى حتى لا يتنافس الأفراد ولا يسيء الشعب استقلال سلطاته . وبعد أن أيدت الأغلبية هذا الرأي ، قرروا أن يختاروا ملكا من بينهم بالطريقة الآتية : يركب السبعة خيولهم في الفجر ، وأول فرس يصلح يصبح راكمه ملكا . وبخدعة حاذقة كان فرس « دارا » أول من صهل ، فتوج ملكا ليصبح سيدا لكل شعوب آسيا التي أخضعها قورش وقمبيز قبله . ويحادثنا هيرودوت عن نظام

وصدقه البابليون وأسندوا اليه القيادة ، غير انه فتح أبواب بابل « لدارا » وجيوشه ، فتدفق الفرس اليها ليذبوا أهلها ويصلبوا ثلاثة آلاف من سكانها .

الكتاب الرابع : وعنوانه « ملبوميني » :

وتتبع فتوح « دارا » شمالا فى منطقة سكيثيا بساحل البحر الأسود الشمالى (فقرات ١ - ١٤٤) وكعاداته ، يحدثنا هيرودوت عن شعوب تلك المنطقة ، غير أن أهل سكيثيا يستحذون على اهتمامه . فهو يبدأ بذكر أصل هذا الشعب ، وبعد ذكر الأساطير التى تفسر أصله ، يقرر أن أهل سكيثيا قد وفدوا من الشمال وعبروا نهر أراكسيس (الفولجا) واحتلوا ساحل البحر الأسود بعد أن طردوا سكانه الأصليين . أما عن أسباب غزو « دارا » لهم ، فقد أراد أن ينتقم منهم لأنهم عندما كانوا يطاردون هؤلاء السكان ، ضلوا الطريق ودخلوا أرض ميديا التى أصبحت فيما بعد بلاد فارس ، واستعبدوا أهلها لثمانية وعشرين عاما . وفى وسط حديث هيرودوت عن السكان المحيطين بهم ، ينتهز الفرصة ليدلى برأيه عن جغرافية العالم كما يتصورها . فالعالم ينقسم الى جزء شمالى به أوروبا ، وآخر جنوبى به آسيا وليبيا (أفريقيا) . ثم يصف لنا نهر اشتار (الدانوب) وفروعه لينقلنا الى أهل سكيثيا القاطنين على ضفته الشمالية . فهو يحدثنا عن عاداتهم ، ويعدد اتصالاتهم باليونان ، ثم يعود الى حملة « دارا » فقد قاد « دارا » حملته من عاصمة « صوصا » ، ووصل الى البسفور وعبره ثم نزل بأرض طراقيا وتوغل فيها شمالا ليخضع كل من يصادفه من شعوب . واتجه بجيشه الى نهر اشتار ليعبره جنوده على فئرة أقامها الأيونيون الناضعون له وقد أراد « دارا » أن يحطم القنطرة ، غير أن

إدارة الإمبراطورية فى عصر « دارا » ، إذ قسمها الى عشرين ولاية يحكم كل منها حاكم مسؤول امام الإمبراطور . وفى وسط وصفه لهذه الولايات يدلى هيرودوت برأيه عن حدود العالم . فأقصى المعمورة فى آسيا شرقا هى الهند ، أما جنوبا فالجزيرة العربية ، وآخر أراضى ليبيا (أفريقيا) جنوبا هى أثيوبيا ، أما أوروبا فيعترف هيرودوت أنه لا يعرف حدودها الغربية . ويعود بنا الى تاريخ ساموس لنرى ما حل بها بعد فشل الغزو الاسبرطى (فقرات ١٢٠ - ١٤٨) ، فقد ازدهر حال « بوليكراتيس » حاكمها وذاع صيته . وكان يحكم « سارديس » حاكم فارسى عينه قمبىز . فحقق هذا الحاكم على بوليكراتيس وتمكن من قتله متبعا حيلة قذرة ، ثم أخذ يفرض نفسه على دويلات الفرس اليونانية حتى أصبح حاكما مستبدا لكل ساحل آسيا الصغرى . ولما تولى « دارا » العرش ، وقتله وخلص آسيا الصغرى من طغيانه . ثم اتجه الى جزيرة ساموس وحاصرها لأنها رفضت الخضوع للفرس بعد موت « بوليكراتيس » ، واستولى عليها وولى أخا بوليكراتيس حاكما عليها لصداقه قديمة بينهما . أما الفقرات الأخيرة من هذا الكتاب (فقرات ١٤٢ - ١٥٨) فهى تتناول حرب « دارا » على بابل ، وفى أواخر أيام قمبىز والماجوشى ، ثارت بابل فى وجه مستعمرها الفرس . فسار اليها « دارا » بجيوشه ، وحاصرها سبعة أشهر حتى أوشك أن يفقد الأمل فى الاستيلاء عليها . ولكن جاء أحد أصدقائه ووعد به بأن يسلمه بابل ، ثم ذهب هذا الرجل وشوه نفسه بقطع أذنيه وأنفه ، ولجأ الى بابل وأقنع أهلها أن « دارا » مثل به لأنه طلب منه رفع الحصار عن مدينتهم ، لذا فهو يتمنى أن يسند اليه البابليون قيادة جيوشهم حتى ينتقم من « دارا »

الايونيين نصحوه بالاباء عليها حتى يضمن طريق عودته سواء ظافرا أو مهزوما . وعمل « دارا » بنصيحتهم ، وتركهم يحرسون القنطرة لمدة ستين يوما ، فان لم يعد عليهم بتخطيطها . ولما علم أهل سكيثيا بغزو الفرس لأراضيهم ، قسموا أنفسهم الى جماعتين : الأولى تعمل على سحب « دارا » وراءها تجاه الشرق بينما تتراجع وهى تخرب الأرض والمحاصيل ، والثانية تتجه شمالا لتخرب الأرض . وبالفعل نجحت الجماعة الأولى فى سحب «دارا» وجيوشه حتى وصل الى منطقة جدداء . فاتجه غربا ليلتقى بالجماعة الثانية التى أخذ يتعقبها وهى تنسحب أمامه وتخرب الأرض . وأخيرا أدرك « دارا » أنه قد وقع فريسة لمطاردة جماعات متعددة تسحبه وراءها لتنهك قواه ويفقد مئوته . فأرسل الى أهل سكيثيا يطالبهم بالاشتباك معه أو الرضوخ له . فيماطله أهل سكيثيا ليرسلوا وفدا منهم الى الايونيين الذين يحرسون القنطرة ليحضهم على تدميرها ، وقد وعدهم الايونيون بذلك . ثم ينتهز أهل سكيثيا انشغال الجيش الفارسى فى تناول طعامه لينقضوا عليه ويقتلوا عددا كبيرا منه ، ثم يسرعون بالانسحاب . ويكررون هجماتهم الخاطفة هذه حتى فقد « دارا » جزءا كبيرا من جيشه ، فانسحب هاربا فى الليل الى نهر اشتر . وكان الايونيون قد خدعوا أهل سكيثيا ولم يدمروا القنطرة ، فعبر « دارا » النهر بجنوده الى طراقيا حيث ترك قائده « فيجا بازوس » بها ليتولى قيادة قواته فى أوربا ، بينما سار هو الى آسيا وقد فشلت حملته . ويخصص هيروودوت الجزء الأخير من كتابه هذا (فقرات ١٤٥ - ٢٠٥) لانتشار نفوذ الفرس فى منطقة ليبيا وبلدة قورنائية . ويؤدى به الحديث عن قورنائية الى التحدث عن

نشأتها ، مما يدفعه الى ذكر جزيرة « ثيرا » . فقد أنشأ أهل اسبرطة مستعمرة بهذه الجزيرة ، ثم أنشأت هذه المستعمرة بلدة قورنائية . وقد ازدهرت هذه البلدة وذاع صيتها فى العالم القديم ، فهاجر اليها يونان عديدون . وفى أثناء حكم قمبيز ، سارت حملة فارسية من مصر لتساعد قورنائية ضد بلدة « برفه » ويحدثنا هيروودوت عن القبائل التى تسكن هذه المنطقة وطبيعة الأرض بها . فأرض المراعى فى الشرق ، والمزارع فى الغرب ، ثم يذكر مصادر الذهب بها والعلاقات التجارية بينها وبين سكان المناطق الأخرى ، ويختتم حديثه موضحا أن هذه المنطقة يسكنها أربع فئات : فئتان من المواطنين الأصليين هما الأثيوبيون فى الجنوب والليبيون فى الشمال ، بينهما فئتان من المستعمرين هما اليونان والفيقيون أما حملة الفرس على ليبيا فقد أوفدها حاكم مصر الفارسى لتساعد ملكة قورنائية فى حربها ضد برفه . وحاصرت القوات الفارسية برقة لمدة طويلة ثم تمكنت من دخولها بالحيلة وأسرت أهلها وسلمتهم لملكة قورنائية التى ذبحت معظمهم . ثم حاولت الحملة الفارسية دخول قورنائية ذاتها واستعمارها . ولكن جاءتها الأوامر من « دارا » الملك الجديد تأمرهم بالعودة .

الكتاب الخامس : وعنوانه « توبسيخورى » : يعود بنا هيروودوت الى القوات التى تركها «دارا» فى أوروبا بمنطقة طراقيا تحت قيادة « فيجا بازوس » . (فقرات ١ - ٢٧) فقد توغلت هذه القوات بأرض طراقيا لتخضع كل قبائلها . بل ويمتد طموحها الى مقدونيا ، فيرسل فيجا بازوس ، وفدا اليها يطلب منها الخضوع للفرس . فخدعه المقدونيون وقتلوا رجال هذا الوفد عن آخرهم . فوجه فيجا بازوس وجهه شطر الشرق ليخضع



تنازل عن عرشه للشعب مما أكسبه شعبية فائقة في البلدان المجاورة ، وأخذ هو يساعد تلك البلدان على التخلص من حكامها المواليين للفرس . ثم اتجه الى بلاد اليونان ليطلب العون منها ضد الفرس . فلجأ أولاً الى اسبرطة ، غير أنها رفضت . فتركها « أرسياجوراس » وذهب الى أثينا . وهنا يقف هيرودوت ليوضح الظروف التي كانت عليها أثينا . اذ ظلت خاضعة لحكم الطغاة من عائلة « بيسستراتوس » الى أن ساعدتها اسبرطة وطردت « هيباس » الطاغية الذي فر الى بلاط « دارا » . ثم تنازع الزعامة « كليثيس » الديمقراطي « وايساجوراس » الأرستقراطي . وتمكن « ايساجوراس » من نفي « كليثيس » ، ثم استعان بـ اسبرطة ليوطد نفوذه مما أغضب الاثنين . فثاروا ضده وطرده هو والاسبرطيين وأعادوا « كليثيس » ونصبوه زعيماً . ولكن أدرك الأثينيون أن اسبرطة لن تتراجع ، بل ستعيد محاولة غزو أثينا . فأرسلوا الى سارديس يطلبون التحالف مع الفرس . غير أن الفرس اشترطوا عليهم الخضوع لهم وارجاع طاغيتهم المطرود « هيباس » الى منصبه ، فرفض الأثينيون وأصبحوا يكتنون للفرس عداء مريراً بعد أن تكشفت لهم نواياهم . عندئذ وصل « أرسياجوراس » الى أثينا ، فكافت الأحوال في صالحه . وتحالفت معه أثينا ، وأرسلت عشرين سفينة لتساعد أهل أيونيا في ثورتهم ضد الفرس ، كما شاركت دولة أترتيا اليونانية في هذه المساعدة . وهكذا اندلعت الثورة الأيونية تساندها أثينا واريا . . لتتبع أطوارها (فقرات ٩٩ - ١٢٦) . اذ تجمعت قوات ابلدان الأيونية في « ملطية » ، وأسمرت بمهاجمة سارديس ومعها قوات « أثينا » و « اترتيا » . فاحتسى الحاكم بالقلعة ، بينما أحرقت هذه القوات البلدة وقلعت

المدن اليونانية الواقعة حول مضيقى البسفور والدردنيل ، بينما كان الأسطول الفارسي في بحر ايجه يعمل على اخضاع الجزر اليونانية بحجة أنها لم تساعد الملك الفارسي في غزوته لأرض مكيشيا . وفي تلك الأثناء اندلعت ثورة على ساحل أيونيا (فقرات ٢٨ - ٩٨) وقد تسببت بلدة ملطية وجزيرة ناكسوس في اشعال نيران هذه الثورة . اذ كانت ملطية في أوج ازدهارها ، كما كانت ناكسوس أكثر الجزر اليونانية ثراء . وحدث أن طرد أهل ناكسوس أثرياء قومهم ، فلجأوا الى ملطية وناشدوا حاكمها الطاغية « أرسياجوراس » العون حتى يعودوا الى « ناكسوس » . ولما كانت ملطية خاضعة للحكم الفارسي ، رأى « أرسياجوراس » أن يستعين بحاكم سارديس الفارسي ووالى أيونيا ، ووعدته بأن يخضع للفرس كل الجزر الجنوبية ان هو ساعده . فوافق حاكم سارديس وأعطاه مائتي سفينة ، وأبحرت هذه الحملة من سارديس تحت قيادة قائد فارسي ومعه « أرسياجواي » وأثرياء « ناكسوس » . ولكن اختلف « أرسياجوراس » مع القائد الفارسي ، فما كان من هذا القائد الا أن أفشى بسر هذه الحملة لأهل « ناكسوس » أملاً أن تفشل حتى ينحط قدر « أرسياجوراس » في عين حاكم « سارديس » . فاستعد أهل ناكسوس لملاقاة الحملة ، وما أن وصلت حتى وجوا أهل « ناكسوس » وقد احتموا بقلعتهم الحصينة . فحاصر الأسطول ناكسوس طوال أربعة أشهر بلا جدوى ، ثم قفل عائداً وقد فشلت الحملة ، وتخرج موقف « أرسياجوراس » فهو لا يستطيع أن يفي بوعدته لحاكم سارديس ، كما خشى أن يعمل القائد الفارسي على اقناع الملك باقصائه عن الحكم . فاتفق وأولى الأمر في ملطية وثار في وجه الفرس . ثم

عائدة . ولما علمت القوات الفارسية القريبة من «سارديس» بهذا التمرد ، أسرع لتجدة حاكم سارديس . والتقت بالثوار على الشاطئ حيث دحرتهم . ومنذ ذلك الوقت تخلت أثينا عن مساعدة الثورة ، فاتجه «أرستاجوراس» الى الشمال حيث حصل على تأييد كل مدن البسفور والدرديل ، ثم الى الجنوب حيث انضمت اليه منطقة «كاريا» وجزيرة قبرص ، وامتدت نيران الثورة الى كل ساحل آسيا الصغرى . وعلم «دارا» بالأمر ، وأقسم أن ينتقم من الأيونيين والأثينيين . ثم تجمعت القوات الفارسية وانقضت على جزيرة قبرص التي تولى أهلها الدفاع عنها ، بينما اشتبك الأسطول الأيوني مع الأسطول الفارسي وهزمه . لكن سقطت قبرص في قبضة الفرس مما أضعف من عزم الأيونيين فانسحبوا . وسارت القوات الفارسية الى «كاريا» لتخدم الثورة بها ، ثم الى البسفور والدرديل وأخضعت مدينتهما . ولما أخذت المدن الثائرة تقع الواحدة تلو الأخرى في قبضة الفرس ، فر «أرستاجوراس» حاكم «ملطية» الى طراقيا حيث مات هناك .

الكتاب السادس : وعنوانه «ايراتو» :

يكمل هيروdot تاريخ ثورة أيونيا (فقرات ١ - ٤١) . فبعد أن هرب «أرستاجوراس» ، تنفست بلدته «ملطية» الصعداء لتخلصها من ربه وطغيانه . غير أنها علمت أن حملة فارسية في الطريق اليها ، ففقدت مؤتمرا من أهل أيونيا وقرروا الدفاع عن حريتهم هم وأهل الجزر . وتجمعت الأساطيل اليونانية القوية عند جزيرة «لارى» ، اذ فضلوا لقاء الفرس في البحر لقوة أسطولهم ولأنهم ان حافظوا على سيادتهم للبحر ضمنوا تحرر

الشاطئ الأيوني ، ولكن تفشت المؤامرات بين قادة الأسطول اليوناني ، وفي يوم المعركة انسحبت سفن بعض البلدان الأيونية ، فانهمز الأسطول اليوناني . وحاصر الفرس بلدة «ملطية» برا وبحرا الى أن سقطت (عام ٤٩٤ ق.م) بعد ست سنوات من اندلاع الثورة ، ونفى الفرس كل سكانها الى ساحل الخليج العربي (البحر الأحمر) ، ثم استمر الأسطول الفارسي يخضع المدن والجزر اليونانية لتنتهي الثورة . وكانت ثورة أيونيا هذه هي الشرارة التي أشعلت الحرب بين الفرس واليونان اذ نقلنا هيروdot الى بلاد اليونان لرى سياسة «دارا» حيالها بعد فشل الثورة (فقرات ٤٢ - ٤٨) . فقد ولي «دارا» «ماردونوس» قائدا على قواته في أوروبا وساحل آسيا الصغرى ، وأخذ «ماردونوس» يخضع المنطقة الباقية من «طراقيا» ، ولكنه يفشل في العبور الى بلاد اليونان ويتحطم أسطوله عند سفح جبل «آثوس» فيتجه الى مقدونيا حيث يخضع كل قبائلها وتصبح أول دويلة يونانية تسقط في يد الفرس . ثم نرى انعكاس هذه الأحداث على دويلات اليونان (فقرات ٤٩ - ٩٣) فقد أراد «ماردونوس» أن يعرف مدى استعداد دويلات اليونان وقوتها ، فيرسل اليها يطلب منها الخضوع للفرس . ورفضت معظم الدويلات ، بينما وافقت بعضها ومنها جزيرة «أيجينا» التي كانت على خلاف دائم مع «أثينا» . فاعتقد الأثينيون أن «أيجينا» انضمت للفرس حتى تتمكن من غزو أثينا ، فأرسلوا يعرضون الأمر على اسبرطة وأعلنوا أن «أيجينا» قد خانت الوطن اليوناني . فذهب «كليومنيس» ملك اسبرطة ومعه الملك الثاني الى «أيجينا» ليحرق معايدها ويأسر زعماءها ، وسلمهم للأثينيين . غير أن «كليومنيس»

فقد عقله بعد ذلك وانتحر وهو في السجن . ولما علم أهل «أيجينا» بموته أرسلوا الى اسبرطة يشكون لمجلس الشورى سوء تصرف الملك الحي ويطالبونه بارجاع الأسرى من أثينا . وهاجم المجلس ملكه ، وأمره باعادة الأسرى الى «أيجينا» فذهب الملك ومعه وفد «أيجينا» الى «أثينا» التي رفضت تسليمه الأسرى لأنها استلمتهم من «كليومنيس» وليس منه . وهكذا وضعت «أيجينا» يدها على مبرر قوى تدين به أثينا ، واستعدت لقتالها . وانتهزت احتفال أثينا بأحد الأعياد ، وأسرت سفينة أثينية مقدسة تحمل خيرة الشباب . ولم تقف أثينا مكتوفة الأيدي ، ولكن لما كان أسطولها ضعيفا أهدتها كورنثه عشرين سفينة ، وهجم الأسطول الأثيني على أسطول «أيجينا» . ولكن انتصرت أيجينا وأسرت أربع سفن أثينية . وفي الوقت انذى كانت أثينا وأيجينا تتصارعان ، كان «دارا» يتأهب ليشن حملة على أثينا وارتربا (فقرات ٩٤ - ١٢١) فهو لم ينس مساعدتهما لشوار أيونيا ، كما أن «هيباس» الطاغية الأثيني المطرود كان يحضه دائما على غزو أثينا ، ولما كان قائده «ماردونوس» قد نشل في بلاد اليونان، نحاء عن القيادة وولى مكانه قائدين لبتيوليان قيادة الحملة على «أثينا» و «ارتريا» . وسار الجيش الفارسي من صوصا الى كلييكيا حيث كان ينتظره الفرسان وأسطول من ٦٠٠ سفينة . ولما علمت «ارتريا» بالغزو الفارسي ، أرسلت تطلب عون أثينا ، فأرسلت لها ٤٠٠٠ جندي . غير أن أهل «ارتريا» كانوا منقسمين على أنفسهم ولم يختاروا بين القتال أو الاستسلام ، فعاد الجنود الأثينيون الى بلدتهم . ووصل الجيش الفارسي الى ارتريا ، ولم يهتم أهلها بالندفاع عنها بل تواروا وراء أسوار

مدينتهم . ولكن سقطت المدينة في قبضة الفرس بفعل الخيانة بعد ستة أيام من حصارها ، ثم أبحرت الحملة نحو أثينا وهي تعتقد أنها ستجابه قوما لا يختلفون عن أهل أرتريا الجبناء . وقد أشار «هيباس» على قادة الحملة بسهل ماراثون الأثيني لصالحته للفرسان ، وقادهم اليه ، وعلمت أثينا بالغزو ، فهب جنودها ليسيروا الى سهل «ماراثون» تحت قيادة عشرة قواد ، من بينهم «هلتياديس» الذي يسهب هيرودوت في ذكر عائلته . وقبل أن يتحرك الأثينيون الى ماراثون ، أرسلوا الى اسبرطة يطلبون مساعدتها . غير أن مطلبهم جاء في اليوم التاسع من الشهر القمري ، والاسبرطيون لا يحاربون الا والقمر مكتملا ، فكان عليهم بالانتظار . ولكن ما ان اصطف الجيشان استعدادا للمعركة الا ووصل أهل « بلاتيا » لنجدة أثينا ، فقد كانت هذه البلدة قد وضعت نفسها تحت حماية أثينا لتحميها من ضغيان حكام اقليم « بيوتيا » وبلدة « طيبة » . واختلف قادة أثينا العشرة فيما بينهم ، فمنهم من نصح بتجنب الاشتباك مع الفرس ، ومنهم من أوصى بسرعة الاشتباك ، وكان هذا رأى «ملتياديس» فلما ساد رأيه تنازل له القادة التسعة عن القيادة ليصبح قائدا أوحدا لقوات أثينا وبلاتيا ، وما ان انتظمت صفوف الأثينيين وأهل بلاتيا حتى أسرعوا بالانقضاض على الفرس وهم يعدون ، وكان انقضاضهم هذا سريعا حتى ان الفرس اعتقدوا ان هؤلاء القوم قد أصابهم مس من الجنون ، فهم يلقون بأنفسهم للتهلكة وهم حفنة ضئيلة . واشتبك الجيشان ، وكان لقوة اندفاع الأثينيين وحماسهم أن ترجح كفتهم وتمكنوا من قهر الفرس . ولكن عندما رأى الأسطول الفارسي أن كل الأثينيين قد تجمعوا في سهل « ماراثون » ، سارع بالابحار

أملا أن يستولى على أثينا وهى خاوية . ولكن أدرك
الأتينيون الأمر، وركضوا عائدين إلى أثينا حتى ما ان
وصل الأسطول الفارسي إلى الميناء الا ووجد القوات
الأثينية برمتها فى انتظاره. فقتل عائدا هو والجيش
إلى آسيا وقد منى الفرس بالهزيمة فى أرض
اليونان لأول مرة ، وخاصة على يد حفنة ضئيلة
بالنسبة لأعدادهم الغفيرة . وبعد انتصار أثينا فى
معركة «ماراثون» ، يفرد هيروdotus الجزء الأخير
من كتابه لسيرة «ملتياديس» (فقرات ١٣٢ - ١٣٩)
فقد أصبح بطلا قوميا بعد المعركة ، ولما طلب من
الأتينيين قواتهم وأسطولهم ولايسألونه عن وجهته،
وانما يعدهم بشراء فاحش ، استجاب له الأتينيون
فى الحال . فقاد ملتياديس الأسطول والجيش الأثيني
ليشن حربا على جزيرة « باروس » المسالمة .
وحاصرها الأتينيون ستة وعشرين يوما بلا جدوى،
ففقد « ملتياديس » الأمل فى الاستيلاء عليها وعاد
إلى أثينا . فشن عليه الأتينيون حملة شعواء ، اذ
كلفهم مالا ورجالا بلا مبرر أو نتيجة . وقدموه
للمحاكمة ، غير أنهم رفضوا نفيه لخدماته الجليلة
واكتفوا بتغريمه مالا .

الكتاب السابع : وعنوانه « بوليمنيا » :

كان لهزيمة الفرس فى ماراثون وقع شديد على
«دارا» (فقرات ١ - ١٩) فقد اشتد حقه على
الأتينيين وقرر تجريد حملة قوية تشن حربا ضروسا
على بلاد اليونان كلها . فأوفد الرسل إلى شتى
أنحاء امبراطوريته الواسعة يجمعون الجند والمؤن
طوال ثلاث سنوات . وفى السنة الرابعة ثارت مصر
على حاكمها الفارسي ، فقرر « دارا » شن الحرب
على أثينا ومصر فى وقت واحد . ولما كانت العادة
المتبعة فى فارس أن يعين الملك خليفة له قبل رحيله

إلى القتال ، أسند «دارا» الحكم إلى «كسر كسيس»
ابنه الثانى . وما ان هم «دارا» بالرحيل حتى واتته
المنية ، فتربع «كسر كسيس» على العرش ، وأخذ
«ماردونوس» القائد الفارسي يغريه ويحفزه على
غزو بلاد اليونان تنفيذا لسياسة أبيه ، كما كان
الطاغية الأثيني المطرود «هيبياس» يحرضه ويشجعه
ولكن اختمرت الفكرة فى عقله عندما أرسل إليه
ملوك «مخاليا» ، الاقليم الشمالى ببلاد اليونان ،
يعدونه بالانضمام إليه ان هو هاجم اليونان . وبعدة
مناقشات عديدة بين نبلاء فارس « وكسر كسيس »
قرر «كسر كسيس» القيام بالحملة وظل يعد لها العدة
أربعة أعوام أخرى ، وبهذا استغرق اعداد هذه
الحملة تسع سنوات . وتسير الحملة لتتبع سيرها
وتغلبها على العقبات فى طريقها (فقرات ٢٠ - ١٣٨)
فقد كانت هذه الحملة أكبر وأوسع حملة عرفها
التاريخ القديم ، جند لها «كسر كسيس» جيوش كل
امبراطوريته الواسعة حتى انه ما من نهر كان يكفى
لتزويد جنوده بالماء . كما أقام ترسانة هائلة لبناء
السفن على شواطئ طراقيا . وخشية أن يتحطم
الأسطول الفارسي مرة أخرى عند سفح جبل
«اثوس» ، قرر «كسر كسيس» أن يتجنب هذا الجبل،
فحفر قناة حوله لجعله جزيرة ، وأقام محطات
لتموين الجيوش على طول الطريق من صوصا فى
فارس حتى طراقيا بشمال بلاد اليونان . وأخيرا
سار كسر كسيس بقواته الفارسية من صوصا إلى
سارديس حيث أمر جيوش الأمم الخاضعة له
بانتظاره هناك (عام ٤٨٠ ق.م) وقضى كسر كسيس
الشتاء فى سارديس ، وأرسل الرسل إلى دويلات
اليونان ، عدا اسبرطة وأثينا ، يطالبها بالخضوع
له ، خاصة وأن أخبار هذه الحملة المهولة كانت
قد وصلت إلى أسماعها ، ثم أقام قنطرة هائلة فوق

الدردييل . وفي الربيع قاد «كسر كسيس» قواته من سارديس الى الدردنيل وعبره الى أوروبا . وقد استغرق عبور جنوده فوق القنطرة سبعة أيام وسبع ليال حتى ان سكان تلك المنطقة ظنوا أن الاله قد تخفى في لباس «كسر كسيس» وقاد الجنس البشري كله ليسحق بلاد اليونان . أما الأسطول الفارسي الذي كان يتكون من ١٢٠٧ سفينة فقد انتظره بميناء (ثرما) بطرافيا . ويعدد هيرودوت الأجناس التي اشتركت في هذه الحملة ليصف أسلحة كل منها وملابسه . فقد كان هناك الهركانيون ، والأشوريون ، والخالديون ، وأهل باكتريا وسكيثيا والهنود والأريون والبارثيون والأثيوبيون والأراميون وأهل فريجيا وليديا وميسيا وطراقيا وجزر الهند الشرقية وغيرهم ، ذلك بالإضافة الى القسوات الفارسية ذاتها أما الأسطول فقد كان عماده الفينيقيين والمصريين وأهل قبرص وكيليكييا وكاريا وأيونيا وغيرهم . وتقوم كسر كسيس بقواته حتى ميناء ثرما ، ثم استعلم عن الممرات الجبلية التي تؤدي من مقدونيا الى تساليا . وفي «ثرما» جاءه الرسل الذين كان قد أوفدهم الى دويلات اليونان ومعهم موافقة بعضها هي : تساليا ، اينانيا ، لوكريا ماجنسيا ، ماليا ، وكل سكان اقاليم بيوتيا وبلدة طيبة عدا بلدة «بلاتيا» حليفة أثينا . وينتقل بنا هيرودوت الى الجانب اليوناني لتري ما ألم به (فقرات ١٣٨ - ١٧٤) فقد كانت كل الدويلات اليونانية تعلم ان حملة الفرس ليست ضد أثينا وحدها ، بل ضد كل الجنس اليوناني . وقد ساد الدويلات التي رفضت الخضوع للفرس التوتر والخوف ، اذا كان كل الجنس اليوناني وأساطيله لا تتعدى عشر قوات الفرس وأساطيلهم . وحارت

أثينا بالذات ، فالحملة تقصدها هي . ولكن ظهر زعيمها الديمقراطي « ثمستوكليس » ، ونصح الأثينيون بتركيز جهودهم على تقوية أسطولهم ، ليتحاشوا الالتحام بالقوات البرية الفارسية ، بل وحضهم على اخلاء أثينا والابحار الى مكان آخر . وكانت أثينا قد اكتشفت الفضة بأرضها ، فاستنلت هذه الفضة لتقوى أسطولها بايحاء من ثمستوكليس حتى ما ان جاء الغزو الفارسي الا وكانت أثينا دويلة بحرية قوية . ثم اجتمعت كل الدويلات التي رفضت الخضوع للفرس ، وعقدت مؤتمرا ببرزخ كورنثة ، وأرسلت الى أرجوس وسيراكوزة وكريت تطلب عونها ، غير أن هذه الدويلات رفضت لبعدها عن الغزو ، وتحركت قوات كسر كسيس في مقدونيا لتعبر الى تساليا . وكان ملوك تساليا يؤيدون الفرس ، غير أن الشعب كان لا يرغب في الانضمام اليهم . فأرسل التساليون الى مؤتمر اليونان ببرزخ كورنثة وأعلنوا انضمامهم لليونان لمقاومة الفرس على شريطة أن تساعد الدويلات اليونانية ، فهم أول من سيلتقون بالفرس . فوافقت الدويلات على مساعدة شعب تساليا ، وأوفدت قوة قوامها ١٠٠٠٠ حندي بقيادة ثمستوكليس وقائد اسبرطي آخر لتحتل ممر «تسبي» الذي يؤدي من مقدونيا الى تساليا ولكن جاءهم النصح من ملك مقدونيا الذي كان مجبرا على الرضوخ للفرس ، وأشار عليهم بالتخلي عن هذا الممر لأن القوات الفارسية قد تكتسحهم ان هي عبرته ، أو قد تعبر من ممر آخر ، وهذا ماحدث بالفعل . فعملت القوات اليونانية بنصيحته وعادت الى برزخ كورنثة ، واضطر أهل تساليا الى الانضمام للفرس . وبعد عودة القوات من تساليا الى برزخ كورنثة شرع اليونان يرسمون خطتهم الدفاعية (فقرات ١٧٥ -

(١٧٨) اذ قرر المؤتمر اختيار ممر «ثرمويلاي» الضيق كأول نقطة دفاعية ، فما من مدخل سواه للدويلات جنوب شاليا ، كما يسهل الدفاع عنه لضيقه ، اذ لا يزيد عرضه عن خمسين مترا . أما الأسطول اليوناني فعليه أن يرسو في مياه «أرتسيوم» المواجهة لثرمويلاي ليمد القوات البرية بالعون .. فتحركت القوات والأسطول كل الى موقعه ، ثم نشهد مناورات بين أساطيل الفرس واليونان (فترات ١٧٩ - ١٩٥) فقد أبحر أسطول الفرس من ميناء «ثرما» ، وتمكنت عشر سفن منه من أسر سفينتين من أسطول اليونان . ولما علم الأسطول اليوناني بمقدم الأساطيل الفارسية ، أبحر الى كالخيس بينما ترك بعض سفنه لترقب تحركات العدو وسار الأسطول الفارسي حتى منطقة ماجنسيا المتاخمة لثرمويلاي ، ولكن هبت عاصفة هوجاء كان الأسطول اليوناني قد تنبأ بها واحتمى في المرافئ ، ونزلت هذه العاصفة على أساطيل الفرس لتحطم أربعمئة سفينة منها . وفي اليوم التالي ، ظن الأسطول اليوناني أن العاصفة قضت على أساطيل الفرس ، فأبحر الى «أرتسيوم» ليجدد أعدادا هائلة من سفن الفرس تسير في جماعات . ورأت خمس عشرة سفينة فارسية أسطول اليونان ، واعتقدت أنه مجموعة من الأسطول الفارسي ، فاتجهت نحوه ليأسرها اليونان بسهولة ، ولكن استمر الأسطول الفارسي في سيره حتى بلدة «أفتي» بينما كان كسر كسيس يضرب بقواته في أرض نساليا ثم آخيا وما ليس ليواجه القوات اليونانية (فترات ١٩٦ - ٢٣٩) . فعندما وصلت القوات الفارسية الى ممر «ثرمويلاي» وجدت القوات اليونانية تحتله . وكانت هذه القوات تتألف من شردمات من مختلف الدويلات ، على رأسها

«ليونيداس» الملك الاسبرطي ومعه ٣٠٠ جندي اسبرطي أرسلتهم اسبرطة كدفعة أولى . ولما رأت القوات اليونانية هول جحافل الفرس وضخامتها عقدت مؤتمرا وطالب الجنود بالانسحاب وانتظار الفرس جنوبا عندبرزخ كورثه ، ولكن أصر القائد «ليونيداس» على البقاء ، لأن التخلي عن هذا الممر يعنى التخلي عن كل الدويلات جنوب ثرمويلاي حتى كورثه . أما «كسر كسيس» فلما رأى ضآلة القوات اليونانية ، وقف أمامها بجحافله أربعة أيام منتظرا منها أن تولى الأدبار . وفي اليوم الخامس أغضبه ثباتها ، فأرسل اليها شردمة من جنوده وأمرهم بأسر اليونان أحياء . ولكن دحرت القوات اليونانية هذه الشردمة رغم تفوقها عددا وعتادا وذلك لعجز الفرس عن التحرك في الممر الضيق ، كما أنهم لم يعتادوا على القتال وجها لوجه . وفي اليوم السادس شن الجيش الفارسي هجوما عنيفا على اليونان ، غير أنهم صمدوا أمامه وقتلوا عددا كبيرا منه . وحرار «كسر كسيس» في أمر هذه الشردمة الصغيرة من اليونان ، فجاء رجل يوناني وأخبره عن طريق سرى فوق الجبال يؤدي الى الطرف الآخر من الممر وبهذا تستطيع القوات الفارسية محاصرة اليونان والقضاء عليهم . ففرح «كسر كسيس» بهذا الرجل ، وأرسل فرقة من جيشه ليلا لتعبر الطريق السرى . ولما علم اليونان بهذه الخيانة ، عقدوا مجلسا وأمرهم «ليونيداس» بالانسحاب كل الى بلدته بينما أصر هو وجنوده الاسبرطيون الثلاثمئة على الصمود في الممر . وعندما أشرقت الشمس ، اندفع «ليونيداس» وجنوده الاسبرطيون نحو الجيش الفارسي وقد عزموا على الموت ، فقتلوا عددا هائلا من الفرس حتى سقط «ليونيداس» في المعركة

ودافع جنوده عن جثته دفاعا مجيدا حتى سقط آخر جندي منهم . ويتجلى حقد « كسر كسيس » على ليوتيداس لما سببه له من صعب فى تمثيله بجثته تمثيلا حيوانيا .

الكتاب الثامن :

وعنوانه «أورانيا»

وقد وقع أول اشتباك مباشر بين أساطيل الفرس وأسطول اليونان أثناء معركة «ثرموبيلاي» (فقرات ١ - ٢٧) : فقد كان الأسطول اليونانى قابعا بمياه أرتمسيوم بقيادة قائد اسبرطى ، غير أن مقادير الأمور كانت فى يد ثمستوكليس القائد الأثينى . ولما رأى الأسطول اليونانى هذا العدد الهائل من أساطيل الفرس ، طالب جنوده بالعودة لحماية أراضيههم ، ولكن قرر القائد الاسبرطى الانتظار بايعاز من ثمستوكليس حتى يجلو أهل يوبيا عن أراضيههم وكان الأسطول الفارسى يرقب تحركات الأسطول اليونانى من ميناء «أفتى» فهو لا يتعجل الاشتباك معه لضالة عدده ، كما أنه قد يسرع بالفرار ان هاجمه . لذا عمل الفرس على محاصرة الأسطول اليونانى ، وأبحرت مائتا سفينة فارسية لتلتف حول أسطول اليونان ولما علم اليونان بالأمر قرروا البقاء حيث هم حتى آخر النهار . وفى الغروب ، تقدم الأسطول اليونانى واشتبك مع الأسطول الفارسى وهزمه وأسر ثلاثين سفينة . وفى تلك الليلة أمطرت السماء وهبت عاصفة كان لها أن تحطم المائتى سفينة الفارسية التى أبحرت لتلتف حول أسطول اليونان . وفى صبيحة اليوم التالى ، أرسلت أثينا مددا الى الأسطول من ثلاث وخمسين سفينة ، وفرح اليونان بهذا المدد كما ابتهجرا عندما علموا بغرق المائتى سفينة الفارسية ، وانتظروا حتى

الغروب وهاجموا الفرس مرة أخرى ليحطموا عددا كبيرا من سفنهم . وفى اليوم الثالث شعر قادة الأسطول الفارسى بالخزى والعار لانهمزامهم من أسطول اليونان الضعيف ، فاستعدوا للمعركة واشتبك الأسطولان . وكانت معركة ثرموبيلاي تدور رحاها فى هذه الأثناء ، لذا كان كل من الأسطولين يعمل جاهدا على احتلال الممر البحرى المواجه لثرموبيلاي ليبد قواته البرية بالعمون . وانتهت المعركة بين الأسطولين ليخرج كلاهما قانعا بالخسائر والمكاسب التى حققها . ولكن علم قادة أسطول اليونان بفاجعة ثرموبيلاي وموت « ليوتيداس » وقواته ، فقرروا الانسحاب جنوبا طالما أن بقاءهم لاجدوى منه . وينقلنا هيرودوت الى البرلنرى زحف قوات «كسر كسيس» بمدثر وموبيلاي (فقرات ٢٨ - ٣٩) فقد سارت جنوبا لتدمر كل ما فى طريقها . وأوفد «كسر كسيس» فرقة من جيشه لتدمر بلدة دلفى المقدسة ، ولكن قضى أهل دلفى عليها . أما هو فقد زحف الى أثينا ، ونعون الى المعسكر اليونانى بعدمعركتى ارتمسيوم وثرموبيلاي (فقرات ٤٠ - ٥٥) فقد علم الأثينيون أن «كسر كسيس» يزحف عليهم بجيوشه ، وأن حلفاءهم قد اكتفوا ببناء سور على برزخ كورنثة لحماية أراضيههم وتخلوا عن أثينا . لذا عاد الأسطول اليونانى الى مياه جزيرة «سالاميس» لمواجهة لأثينا بناء على مطلب ثمستوكليس حتى يتمكن الأثينيون من اخلاء مدينتهم والابحار الى سالاميس . وبعد أن أبحر الأثينيون من أثينا ، اجتمع قادة الأسطول ليتشاوروا فى الانسحاب من «سالاميس» الى كورنثة حتى يسهل عليهم الفرار ان لزم الأمر . ثم يصل الى مسمع الأسطول اليونانى أن الفرس دخلوا أثينا ووجدوها خاوية فأحرقوها ، فيؤثر

ذلك على قرار قادة الأسطول (فقرات ٥٦-٦٤) اذ اتفقوا على الانسحاب الى كورنثه ، غير أن ثمستوكليس هددهم بسحب سفن أثينا من الأسطول اليونانى ، وهى الغالبية العظمى ، ليجر هو والأثينيون الى صقلية تاركين بلاد اليونان . فخاف القائد الاسبرطى للأسطول من تهديد ثمستوكليس هذا . أما عن الأسطول الفارسى (فقرات ٦٥-٧١) فبعد ستة أيام من معركة أرتميسيوم وصل الى ميناء «فاليروم» الأثينية حيث كان كسر كسيس وقواته ينتظرونه . وعقد كسر كسيس على ظهر مركبه الملكى مجلسا للحرب من قادة أساطيله ، وطالبوا جميعا بالاشتباك مع الأسطول اليونانى فى الحال ، عدا «أرتميسيا» أميرة هاليكاناسوس التى نصحت الملك بالسير الى البلوبونيز يصحبه أساطيله . وقد لاقى فى رأيها هذا التقدير من كسر كسيس ، غير أنه وافق على رأى الأغلبية ، ألا وهو الاشتباك مع الأسطول اليونانى فى مياه سالاميس . ونعود الى الأسطول اليونانى (فقرات ٧٢-٨٣) فما ان ظهر الأسطول الفارسى الذى كان لايزال متفوقا عليه عددا حتى تسرب القلق والخوف الى نفوس قادته وخاصة الاسبرطيون . ففقدوا مجلسا آخر ، وقرر كل من ينتمى الى شبه جزيرة البلوبونيز ، وهم الغالبية ، الانسحاب من «سالاميس» ، بينما عارضت كل من أثينا وأيجينا وميجارا هذا القرار فاجار الأسطول اليونانى معنى وقوع هذه الدويلات فى يد انفرس . ولما أدرك ثمستوكليس الأثينى أن رأى الاسبرطيين سيكتب له الغلبة ، أجبر الأسطول اليونانى على البقاء فى مياه «سالاميس» بالحيلة . اذ أرسل الى قادة الأسطول الفارسى سرا وأخبرهم أن الأسطول اثنونانى قرر الانسحاب نيل ، فان هم سارعوا بالهجوم عليه كتب لهم النصر ، خاصة

وأن الشقاق قد دب بين قادته . وصدق الفرس رسالة ثمستوكليس واعتقدوا أنه قد خان وطنه ويعمل لصالحهم . فأسرع الأسطول الفارسى بمحاصرة الأسطول اليونانى فى صمت ، وبينما كان النقاش لايزال حاميا بين قادة الأسطول اليونانى ، وصل رجل بسفينته من جزيرة أيجينا ليعلم عليهم أنه قد اخترق صفوف الفرس بصعوبة ، فقد حاصرهم الأسطول الفارسى من كل جانب ، فأصبح لافر من الاشتباك مع الفرس فى مياه سالاميس ، ويصف لنا هيرودوت معركة سالاميس البحرية هذه وصفا رائعا (فقرات ٨٣-٩٦) ، فقد أبلى فيها اليونان وخاصة الأثينيون بلاء حسنا ، اذا استدرجوا سفن الفرس الضخمة الى مياه ضيقة مما قيد حركتهم بينما كانت السفن اليونانية خفيفة وسريعة الحركة ، وتمكنوا بقيادة ثمستوكليس من تحطيم معظم الأسطول الفارسى ، بينما عملت سفن ايجينا على تحطيم السفن الهاربة . واتتهت معركة «سالاميس» بهزيمة الفرس هزيمة نهائية وانتصار اليونان انتصارا رائعا . ووضعت هذه المعركة نهاية حاسمة للغزو الفارسى (فقرات ٩٧-١٤٤) فعندما رأى كسر كسيس أساطيله تتحطم وتفرق ، خشى أن يهجر الأيونيون عماد أسطوله لينضموا الى اخوانهم اليونان ، كما خشى أن يفطن اليونان لتدمير القنطرة الممتدة فوق الدردنيل ، وبذلك يعزلونه عن مملكته فى آسيا ويفتكون به فى أراضيهم فأرسل ماتبقى من أساطيله الى الدردنيل لتحمى القنطرة ، بينما سارع هو بالانسحاب شمالا الى تساليا حيث ترك قائده «ماردونوس» ومعه ٣٠٠٠٠٠ جندى ليصونوا ممتلكاته فى أوروبا ، وسار هو الى الدردنيل وعبره متجها الى سارديس . أما اليونان ، فما ان اسحب الفرس حتى احتفلوا

بنصرهم المبين وقسموا الأسلاب فيما بينهم ، وأصبحت أثينا وزعيمها ثستوكليس بطلا قوميا أنقذ الجنس اليوناني من قيد العبودية الفارسي ولكن ما ان حل الربيع حتى دبت الحركة والنشاط ببلاد اليونان ، اذ لا يزال هناك جنود فارسيون فى أراضيهم بقيادة « ماردونيوس » . فتجتمع الأسطول اليوناني عند جزيرة ايجينا ، ووصل اليه وفد من أيونيا يطلب منه الابحار الى ساحل آسيا الصغرى لتخليص هذا الساحل من طغيان الفرس ، بينما كان ماردونيوس يعمل جاهدا على التحالف مع أثينا حتى يضمن سيادة البحر بسفنها ، ولكن أبت أثينا التحالف معه ورفضت التخلي عن بنى جنسها .

الكتاب التاسع والأخير :

وعنوانه « كاليوبي »

كان لرفض أثينا التحالف مع « ماردونيوس » أن يثير غضبه (فقرات ١ - ١٨) فجمع جيشه وسار قاصدا اياها ليغزوها (ربيع عام ٤٧٩) ، ولما حط بأرض حلفائه أهل طيبة واقليم بيوتيا ، نصحوه بالبقاء فى بلدتهم بينما يعمل على رشوة قادة اليونان غير أنه يرفض ، اذ اتوى غزو أثينا . فقاد جيشه اليها ليجدها خاوية ، اذ هجرها سكانها مرة أخرى الى سالاميس عندما علموا بزحف ماردو ليوس عليهم . وهكذا سقطت أثينا فى يد الفرس وهى خاوية مرتين فى عشرة أشهر . فأرسل ماردونيوس الى أهل أثينا بسلاميس يعرض عليهم التحالف معه مرة أخرى ، غير أنهم أصروا على رفضهم وأرسلوا الى بلاتيا وميجارا واسبرطة يطلبون العون وماطلت اسبرطة الوفد الأثيني لأنشغالها فى بناء سور برزخ كورثه ، ثم أرسلت ١٠٠٠٠ جندي

لنجدتهم وأخبر أهل « أرجوس » « ماردونيوس » بالمعونة التى ستتلقها أثينا ، فترك أثينا وانسحب الى « ميجارا » حيث شن عليها هجوما خاطفا وعاد الى طيبة حليفته ، فقد فضل أرض هذا المكان لاستوائها وصلاحياتها لتحركات فرسانه ، كما وصلت جنود الدويلات الموالية للفرس هناك . وأخذت القوات الفارسية واليونانية تستعد للمعركة (فقرات ١٩ - ٧٠) اذ ما ان وصل العون الاسبرطى الى برزخ كورثه حتى انضمت اليه كل قوات شبه جزيرة البلوبونيز ، ثم سارت القوات الى سهل « البوسيس » الأثيني حيث كان الأثينيون فى انتظارها بعد أن عادوا الى بلدتهم . وسارت كل القوات اليونانية من « اليوسيس » الى منطقة « بيوتيا » حيث تقع بلدة طيبة ، ونصبوا معسكرهم على منحدرات جبل كيثايرون أمام معسكر الفرس . وهاجمهم فرسان الفرس وضغطوا على جنود « ميجارا » الذين طلبوا عون القوات اليونانية الأخرى . فتنطوع ثلاثمائة أثيني لأخذ مكان أهل « ميجارا » ، وهاجمهم الفرسان هجوما عنيفا أيضا ، غير أن الأثينيين تمكنوا من قتل قائدهم ، كما جاءهم العون من القوات اليونانية الأخرى وأجبروا فرسان الفرس على الفرار . ثم استقر رأى القادة اليونان على ترك هذا المكان المرتفع المكشوف والاقتراب من بلدة « بلاتيا » حيث تكثر ينابيع المياه ، فتبعهم الفرس الى ذلك المكان . ثم اصطف اليونان للمعركة ودارت مناقشة حامية بين الأثينيين وأهل تيجيا حول شرف احتلال احدى جناحي الجيش ، بينما يحتل الاسبرطيون الجناح الآخر . وقد نال الأثينيون أخيرا هذا الشرف ، وكانت القوات اليونانية تتكون من ١١٥٠٠ جندي ، والقوات الفارسية ٣٠٠٠٠٠ جندي . ووقف الجيشان استعدادا للمعركة ، وذبخوا

القرايين واستطلعوا مشيئة السماء كعادة القدماء ولم تكن البشائر مطمئنة ، فظل الجيشان فى خمول تام طوال ثمانية أيام ، ثم أخذ كل منهما يغرى الآخر على الاشتباك طوال يومين آخرين . وتسرب القلق الى «ماردونىوس» ، فهو يتعجل الاشتباك لينهى الموقف . ونصحته زميله «أرتابازوس» الوالى الفارسى لشمال اليونان بالانسحاب الى طيبة والعمل على رشوة القادة اليونان ، فهو لن يستطيع أن يواجه أمة اليونان كلها وهى مجتمعة الشمل . ولكن رفض «ماردونىوس» نصحه ، وقرر الاشتباك مع اليونان متغاضيا عن استدلال مشيئة السماء . وفى فجر اليوم التالى ، هاجم الفرس القوات اليونانية وأفسدوا مياه الينابيع التى تزود منها . فقرر اليونان الانسحاب الى مكان آخر به ماء . وما ان جاء الليل حتى سارعت غالبية القوات اليونانية بالانسحاب ، لا الى المكان المتفق عليه ، بل الى بلدة «بلاتيا» نفسها ليحتموا بها ويتجنبوا المعركة . واعتقد القائد الاسبرطى ان هذه القوات قد انسحبت الى المكان المتفق عليه ، فأصدر أمره للقوات اليونانية الباقية ، وهى قوات أثينا واسبرطة وتيجيا بالتحرك نحو التلال . وعلم ماردونيوس بالانسحاب اليونان ، فتعقبهم وهجم جيشه بكامل قوته على جنود اسبرطة وتيجيا ، بينما انقض الموالون للفرس على جنود أثينا . وقد رجحت كفة الفرس فى البداية وقتلوا عددا كبيرا من جنود اسبرطة وتيجيا . ولكن اندفع أهل تيجيا فجأة وهجموا على الفرس بوحشية وتبعهم جنود اسبرطة ، مما أربك الفرس وخلخل صفوفهم ، بينما كان الأثينيون يقتلون جنود الموالين للفرس . وسقط ماردونيوس فى المعركة سريعا وفر الفرس عندما سقط قائدهم ، وحذا حذوهم الموالون لهم واحتموا بقلعة طيبة . أما

القوات اليونانية الأخرى التى كانت قد فرت الى بلاتيا ، عندما علمت برجحان كفة اليونان فى المعركة أسرع لنجدتهم وللمشاركة فى النصر . ولكن انقض عليهم فرسان بلدة طيبة الموالون للفرس وفتكوا بهم . وهكذا نال أهل أثينا واسبرطة وتيجيا شرف الانتصار فى معركة «بلاتيا» هذه . وبعد المعركة اتخذ اليونان عدة تدابير (فقرات ٧١ - ٨٩) اذ دفنوا موتاهم وذبحوا قرايين الشكر ، ثم أسرعوا بمحاصرة بلدة طيبة التى خلقت الكثير من المشاكل لليونان ، وانضمت الى جانب الفرس . وأسرت القوات اليونانية أولى الأمر فى طيبة وقتلتهم . أما القوات الفارسية الوحيدة التى كانت لاتزال بأرض اليونان تحت قيادة «أرتابازوس» الوالى الفارسى فما ان علمت بهزيمة الفرس فى بلاتيا ومقتل ماردونيوس حتى سارعت بالهرب تاركة بلاد اليونان الى مضيق البسفور . ثم تنتقل الى البحر لئرى ماقام به الأسطول اليونانى (فقرات ٩٠ - ١٠٦) فأناء معركة بلاتيا دارت معركة أخرى فى ميناء «ميكالى» بساحل آسيا الصغرى . اذ أرسل أهل ساموس الى الأسطول اليونانى القابع بمياه ديلوس وطلبوا منه مهاجمة الأسطول الفارسى فى ساحل أيونيا حتى يشوريونان آسيا الصغرى ويتخلصوا من الاستعباد الفارسى . ووافق الأسطول اليونانى واتجه الى ساموس . وما ان رآه الأسطول الفارسى حتى سارع بالفرار فقد ثبت من المعارك البحرية السابقة أن اليونان أقدر بكثير من الفرس ، واتجه الأسطول الفارسى الى ميناء ميكالى ليكون بجوار القوات الفارسية البرية التى تركها «كسر كسيس» بآسيا الصغرى لتحصى مصالحه . فأبحر الأسطول اليونانى وراءه الى «ميكالى» ليجد الفرس وقد سحبوا سفنهم على الشاطئ ونزلوا لينضموا

تقييم هيرودوت :

ما من شك أن هيرودوت أبو التاريخ ، ولكن ما الذى جعل منه أبا له ؟ ان التاريخ علم يدرس تتابع الأحداث ، يسرده كاتب يتمتع بحاسة التاريخ ووله بالمعرفة . فهو يحدد ويسجل ويفهم الماضى ليقرر ما حدث بالفعل ولماذا حدث . وان كان من جاءوا قبل هيرودوت قد تمتعوا بحاسة التاريخ ، غير أنهم لم يصلوا الى تحديد مفهومه ووظيفته . فقد انحصرت مجهوداتهم فى حوليات محلية تسجل الأحداث تسجيلًا جامدًا مجردًا ، أو تذكر أنساب عائلة ارسقراطية يرجع أصلها الى بطل أسطورى أو اله ، أو تغنى بأسفار ومغامرات أبطال الأساطير كأوديسيوس وهرقل . بل وغالبًا ما أرجعوا أسباب الأحداث الى ظواهر أسطورية أو نوازع الهية . ولكن بكتابات هيرودوت ولد التاريخ ، اذ كان أول من عالج موضوعا معالجة شاملة ناقدا اياه ليفلسف جوانبه ويكشف عن الصلة ما بين أسباب الأحداث وتائجها ، ويكفى أن نقرأ مقدمة تاريخه الجامع لنذكر التحول الذى أنجزه هيرودوت فى تحديد مفهوم التاريخ ، فقد جعل من الانسان محورا لتاريخه عندما أعلن أنه سيسجل « ماخلتته قريحة الرجال » ، لا قريحة الأبطال الأسطوريين والآلهة كما اعتاد اليونان ، وسيعحدثنا عن « الأجيال التى نطلق عليها أجيال الانسان » لتلك الأجيال الخرافية التى تناقلت الأساطير . ويبرهن منهجه هذا عمليا فى بداية كتابه الأول . اذ هو يذكر لنا الأساطير التى تفسر سبب التصادم بين الفرس واليونان ، ثم يصدر حكمه عليها ليقول انه « يرفضها كلها لكونها غير علمية وبعيدة عن الصدق » ويسترسل ليضع يده على السبب التاريخى القعلى ، ألا وهو اشتباك كريوسوس « ملك ليديا » اليونانى بقورش الملك

لقواتهم البرية . واتتهز الأيونيون المدرجون فى القوات الفارسية الفرصة وتمردوا مما أربك الفرس كما انتشر نبأ انتصار اليونان فى « بلاتيا » مما شد من أزر اليونان وأضعف مقاومة الفرس فالتقى الجيشان ليحرز الأثينيون والاسبرطيون نصرا مبينا على شاطئى أيونيا فى الوقت الذى كان زملاؤهم يحرزون نصرهم فى « بلاتيا » . وبعد انتهاء معركة ميكالى ، أحرق اليونان ما تبقى من أسطول الفرس ثم أبحر أسطولهم الى ساموس ليتشاور قاداته فى أمر الايونيين حتى لايقعوا فى قبضة الفرس مرة أخرى . واستقر الرأى على توحيد قوى يونان الجزر والساحل لضمان حريتهم . وأخيرا يختم هيرودوت تاريخه الجامع (فقرات ١٠٧ - ١٢٢) لاختفاء أثر الفرس تماما من الأراضى اليونانية عندما طردت القوات اليونانية ما تبقى من القوات الفارسية بمنطقة المضيقين .

وبعد هذا العرض لتاريخ هيرودوت الجامع ، يمكننا أن نقسمه الى جزئين : الجزء الأول من الكتاب الأول حتى الكتاب الخامس فقرة ٢٧ ، وفيه يتتبع هيرودوت خطى توسع امبراطورية الفرس وسيطرتها على بلدان الشرق القديم مما يدفعه الى التحدث عن تاريخ تلك البلدان . والجزء الثانى من الكتاب الخامس فقره ٢٨ عندما بدأت ثورة أيونيا عام ٥٠٠ ق.م حتى آخر الكتاب التاسع والأخير ، وفيه يسرد علينا هيرودوت الأحداث التى سادت دويلات اليونان والمعارك والمباحثات والتوتر الذى أصاب كل من الفرس واليونان . وبهذا فالجزء الأول يسمى « تاريخ فارس » والجزء الثانى « تاريخ الحروب الفارسية » .

الفارسي - كما تحتل أفعال الانسان تاريخ هيرودوت برمته ، وما من ذكر لأحداث تسيرها المعجزات أو تتحكم فيها الآلهة . اذ نرى قورش يتوج ملكا لأنه قاد نضال الفرس ضد استبعاد الميديين فاستحق التكريم ، ويستحوذ «دارا» على العرش بالحيلة والخديعة لابعجزة أو تدخل الهى ، ونعجب بعظماء الرجاء لما ينجزونه لا لما يرتبطون به من أساطير . لقد آمن هيرودوت بالانسان ، وآمن أنه هو من يخلق الأحداث ومن يدور فى فلكها . ولم يقتصر اهتمام هيرودوت على الانسان اليونانى ليمجد بنى جنسه متغاضيا عن هفواتهم ومنقضا من قدر الشعوب الأخرى ، بل أعلنها صراحة أنه سوف «يسرد كل ماحققة الرجال من أمجاد سواء من اليونان أو من غير اليونان» ، وهو بذلك يكشف عن قيمة نظرة المؤرخ الموضوعية وضرورتها . أما على مستوى البلدان والدول فهو يقول : « وسوف نفحص تاريخ كل من البلدان الكبرى والصغرى ، لأن تلك التى كانت فيما مضى بلدانا عظيما أصبحت الآن لا ذكر لها ، أما تلك صاحبة النفوذ والوصولان فقد كانت من قبل لاشأن لها ، أى أن المؤرخ لا يأخذ بالظواهر ، بل يرجع بالحدث الى أصله ومنشئه ليظهر أسبابه ويوضح نتائجها . وهكذا كان هيرودوت أول من حدد مفهوم التاريخ الذى لخصه فى نقاط ثلاث : الاهتمام بأفعال الانسان اهتماما مباشرا ، فهذه الأفعال ذات نفع بالغ للانسانية ويجدر المحافظة عليها من الزوال ، والأعمال المجيدة ليست قاصرة على جنس من الأجناس بل ينجزها كل انسان وفى مختلف الظروف ، والأحداث ليست وليدة الصدفة والحظ ، بل تنبع من بواعث ودوافع من الممكن اكتشافها ، فالحاضر تكمن جذوره فى الماضى والماضى يخدم الحاضر الذى هو مرشد للمستقبل .

والاطار العام لتاريخ هيرودوت الجامع هو الحرب التى شنها الفرس على اليونان . وفى الواقع لا تحتل حملات «دارا» «وكسر كسيس» والمعارك بين الفرس واليونان سوى الكتب الأربعة الأخيرة ، بينما خصص هيرودوت الكتب الخمس الأولى لينقب عن أصل الصراع ودور الأفراد فيه ، بادئا من ظهور امبراطورية الفرس وفرض نفوذها على شعوب العالم القديم ومتطرقا للتحدث عن دويلات اليونان وتاريخها والأوضاع السائدة بها والمنازعات بينها . ولكن تسيطر الأحداث المعاصرة على جوهر تاريخه ، وحتى ان اضطره الموقف ليتتبع تاريخ أسرة حاكمة ، أو تعرض لتاريخ شعب من الشعوب كان يحد نفسه بدائرة المعاصرة ولا يرجع الى الوراء أكثر من قرن أو قرنين . وعندما يصل بنا هيرودوت الى الصراع ما بين الفرس واليونان وتاريخ المعارك فى الكتب الأربعة الأخيرة ، تزداد نبراته حدة وسرده حيوية ، بل ويرسم لنا صورة رائعة صادقة للمعارك التى دارت رحاها ومدى قوة كل من الجيشين واستراتيجيته ، ثم يتسلل الى نفوس القادة ليرز نزواته وأطماعهم ، وإلى الجندى العادى ليظهر مخاوفه وآماله ، والخianات التى يعانى منها المعسكون ومدى تأثيرها على جريان الأحداث - أما من ناحية البناء الأدبى لتاريخه الجامع ، فقد خلق منه هيرودوت بناء دراميا ، اذ يتتبع امبراطورية الفرس وهى تعلو شيئا فشيئا ، مثلما تتتبع ارتفاع البطل الزاجيدى اليونانى ، وما ان تصل الى التمة حتى يركبنا الغرور وتعتقد انه ما من شعب على الأرض يقوى على الوقوف فى وجهها ، فيكون سقوطها ودمارها . وفى غمار هذا البناء الدرامى العام نلتقى بشخصيات درامية تصورا أمجاد الانسان ومصيره . اذ نرى «كريوسوس» ملك ليديا الذى

حيال تاريخ وطنه ، كما أنه قد بذل قصارى جهده ليتحرى الصدق بقدر ماتسمح به امكانياته ووفقا لمقاييسه اليونانية . أما فى مجال التاريخ اليونانى فلم يكن هيرودوت مصورا فعلا للحركات الاقتصادية والاجتماعية كما أنه أغفل آثار التحولات السياسية التى ألت بالدويلات اليونانية وتناجها ، فما يحتويه تاريخه الجامع ليس سوى عرض سريع لاصلاحات المشرع ليكرجوس وصولون «وكليثينس» ، وكلمات مقتضبة عن تطور الديمقراطية فى أثينا منذ طرد طغاة عائلة «بيستراتوس» حتى عصر بركليز ، يقصها علينا هيرودوت بلا اشارة للتأثيرات التى ترتبت عليها .

ومثلما كان هيرودوت أبا للتاريخ ، كان أيضا أبا للجغرافيا وعلم الانثروبولوجيا . فقد زار الكثير من البلدان ونزل بين مختلف الشعوب ، فامتد شغفه الى كل صغيرة وكبيرة ليقدم لنا صورة صادقة عن جغرافية تلك البلدان وعادات شعوبها وأصلهم . والواقع أن مادفعه الى الاهتمام بالجغرافيا والانثروبولوجيا هو اهتمامه بالانسان فى حد ذاته ، فقد آمن ان لكل بيئة جغرافية مقوماتها الخاصة التى تشكل مادياتها ، وهذه الماديات هى التى تشكل طباع الانسان وعقليته ، بل وبناءه الجسمانى ، وما سلوك الانسان وعاداته سوى انعكاس لمقومات هذه البيئة الجغرافية والجنسية وعندما كان هيرودوت يتناول شعبا من الشعوب بالدراسة ، كان يتبع منهجا موحدًا : فقد كان يبدأ بوصف البيئة الجغرافية لهذا الشعب ، ثم يبحث عن أصله والجنس الذى انحدر منه والهجرات التى أثرت فيه ، ثم يسرد عادات هذا الشعب وطباعه ، ويختم دراسته بسرد تاريخ هذا الشعب . ومن هذا المنهج المتكرر يتضح أن التاريخ فى رأى

فاق ثراؤه كل حد ، فتخيل أن ما من محال أمامه ليكون ذله وهو انه على يد «قورش» . نرى قسبى الملك الفارسى الذى سخر من الناس ، واحتقر مجهوداتهم ، فكان مصيره الجنون . نرى ملتياديس الذى أهدى النصر لبلدته أثينا فى ماراثون وقد ركه الغرور فذهب يعتدى على جزيرة باروس المسالمة ليسلبها ، فكان مصيره الحط من شأنه ومحاكمته فى أثينا ببلدته . ثم نرى أمجاد الانسان ومدى قدرته على سقوط الأبطال بموقعة ثرموبيلاي ، فى حذق ثمستوكليس وحسن تصرفه فى «أرتمسيوم» و «سالاميس» ، فى قوانين «صولون» واصلاحات كليثينس . ان كل هذه النماذج الانسانية تضى على تاريخ هيرودوت رونقا جذابا وتقننا بأن الانسان هو صانع تاريخ هيرودوت الجامع ومحركه .

وقد نجد بعض الأخطاء التاريخية فى تاريخ هيرودوت الجامع ، ولكن تحتم علينا الأمانة العلمية والنظرة الموضوعية أن نلتمس له الأعذار ، فهو لم يخطئ عامدا متعمدا . لقد كان هيرودوت لايعرف سوى لغته اليونانية ، ولم يكن تفاهمه مع الأقوام والشعوب التى نزل بينها بالأمر اليسير كما قد يقع فريسة لراوية غير أمين ، اذ لم يكن بين يديه وثائق دقيقة تساعد على جمع مادته . ومع هذا كان أمينا مع نفسه ، فعندما يذكر حادثة غير متأكد من صحتها يشفعها قائلا : « من واجبى أن أسجل كل ما يقال لى ، ولكن ليس من الضرورى الأخذ به وتصديقه » ، أما تلك الحالات التى يكون متأكدا من صحتها ، فهو يعضدها بما لديه من أدلة وبراهين . أما تاريخه عن مصر ، فرغم ما وقع فيه من أخطاء ، ورغم ما اتهم به من عدم توخى الدقة يؤكد علماء المصريات أن هيرودوت قد أعطى لنا صورة صادقة لما كان يدور بخلد الرجل المصرى

هيرودوت ما هو الا تتاج كل هذه المقومات الجغرافية والجنسية ولكن أسهم هيرودوت فى علم الجغرافيا القديم مساهمة فعالة . ولما لم يكن العلم فى عصره من التقدم ما يسمح له بالاستعانة بخريطة تضاريس أو أقطار أو غيرها ، كان عليه أن يصف البناء الجغرافى لما هو بصده وصف دقيقا مصحوبا بمقاييس وأبعاد حتى يتمكن القارىء من تخيله تخيلا أقرب للحقيقة ، بل وفى امكانه رسم خريطة له متبعا للمقاييس والأبعاد التى يحددها هيرودوت كما أدلى هيرودوت برأيه فى جغرافية العالم، وقسمه الى جزء شمالي به أوربا وآخر جنوبى به آسيا وافريقيا ، ثم حدد لنا آخر أطراف المعمورة كما يعلمها والبحار التى تكتنفها ، وعدد الأنهار التى تصب فى البحر الأسود والتى تتفرع من نهر الدانوب ، واعتقد أن نهر الدانوب فى النصف الشمالى من العالم يقابله نهر النيل فى النصف الجنوبى ، وحاول أن يعرف منابع النيل ويفسر فيضانه فى الصيف . وما من مكان تعرض له الا ووصف تضاريسه وصفا حيا : الجبال والهضاب والمراعى والغابات وأرضه الزراعية وحاصلاته الرئيسية . غير أنه استغل هذه العوامل لخدمة الانسان، فهو يصفها ليوضح ظروف معيشة الانسان ومصادر قوته ودياناته وطباعه .

حاوية جامعة لفروع المعرفة التى انتشرت فى العالم القديم وبين مختلف الشعوب . وما من دارس لأصول التاريخ أو علم الجغرافيا والاثروبولوجيا الا وامتدت يده لتاريخ هيرودوت الجامع . فلولا هذه لما أمكننا معرفة هذه العلوم أو جمع مثل هذه المعلومات ، وهذا ما جعل منه أبالا للتاريخ فحسب بل لكثير من العلوم الانسانية .

بعض فقرات من تاريخه الجامع :

الكتاب الثانى ، فقرة ٤ يحدثنا هيرودوت عن فضل المصريين فى التقويم .

« أما فى مجال العلوم الانسانية المجيدة ، فهذا ما قيل لى وما اتفق على صحته الجميع : المصريون هم أول من اخترعوا السنة الشمسية ، وأول من قسموا مدارها الى اثنى عشر جزءا مستغلين معرفتهم للنجوم وحركاتها . وفى رأى أنهم ينظمون هذه السنة بطريقة أدق وأجدى من اليونان . فالليونان يزجون بشهر نسيء بين كل عام وعام ، أما المصريون فهم يقسمون السنة الى اثنى عشر شهرا فى كل منها ثلاثون يوما ، ثم يضيفون خمسة أيام لكل عام . وبهذا تصبح دورة الفصول محددة تحديدا دقيقا لاتخرج عنه »

الكتاب الثانى فقرة ٨ . ويصف هيرودوت البناء الجغرافى لوادى النيل .

« وكلما توغل المرء من هليوبوليس الى أعالى مصر ، تضيق الأرض شيئا فشيئا . وأرض مصر يحدها من جانب سلسلة التلال العريية ، ومن

وان تاريخ هيرودوت الجامع يعد من أروع ما خلفه الفكر القديم ، وما من كتاب مثله يحوى كل هذه الجوانب من المعرفة الانسانية ويتبع مثل هذا المنهج العلمى . لقد أراد هيرودوت أن يصور عن صدق فكرته عن التاريخ ، فجاءتنا هذه الصورة

الجانب الآخر سلسلة التلال الليبية . أما السلسلة الأولى فهي تمتد بلا انقطاع حتى البحر المسمى البحر الأحمر ، وبها المحاجر التي قطعت منها أحجار أهرامات منف حيث تبدأ هذه السلسلة . وأطول أبعادها من الشرق الى الغرب يستغرق شهرين سفرا كما يقولون ، وفي أقصى حدودها الشرقية يستخرج البخور . هذه هي الملامح الرئيسية لهذه السلسلة ، أما السلسلة الأخرى التي بنيت عليها الأهرامات ، فهي صخرية مغطاة بالرمال ، وتمتد في نفس اتجاه التلال العربية . وهكذا لا نجد جنوب هيلو بوليس أرضا واسعة كذلك التي عرفت بها مصر ، بل تضيق الأرض طوال أربعة أيام سفرا بالمركب ، والوادي المنحصر بين السلسلتين سهل مستو ، بدا لي أنه في أضيق مناطقه لا يزيد عرضه عن ٢٠٠ فرسخ ممتدا من التلال العربية الى التلال الليبية . ولكن بعد هذه المنطقة تعود أرض مصر لتأخذ في الاتساع مرة أخرى .

الكتاب الثاني فقرة ٨٠ عن عادات المصريين وأخلاقهم .

« وهناك عادة أخرى يشترك فيها المصريون مع شعب من شعوب اليونان ، ألا وهو شعب اسبرطة . فعندما يلتقى صغارهم بكبارهم في الطرقات ، يفسحون الطريق لهم ويتحنون جانبا وان حدث وجاء رجل مسن حيث يجلس بعض الشبان، ينتفض الشبان من جلستهم ولكن هناك عادة يختلفون فيها عن كل شعوب اليونان . فعندما يلتقون ببعضهم في الطريق ، لا يحدث كل الآخر عند اللقاء ، بل ينحنون أولا ، واضعين أيديهم على ركبهم . »

الكتاب الثالث فقرة ٨٢ . بعد أن تخلص نبلاء فارس السبعة من حكم الماجوسى المدعى ، عقدوا مجلسا ليختاروا شكلا من أشكال الحكم لدولتهم، وينتزه هيرودوت هذه الفرصة ليحدد على لسان « دارا » مفاهيم نظم الحكم ومزايا كل منها وعيوبه .

« تلك كانت مشورة ميجابازوس . ثم وقف بعده « دارا » وتكلم قائلا : « ان كل ما قاله ميجابازوس ضد النظام الديمقراطي لهو حديث رائع، غير أنه لم يقنعنا بحديثه عن النظام الأوليجركى فلنفحص أشكال الحكم الثلاثة هذه : الديمقراطية والأوليجركية ، وحكم الفرد المطلق . فان تخيلنا كلا منها في صورته المثالية أعتقد أن الحكم الفردي سيتفوق على الشكليين الآخرين ، فما هو أفضل من حكم أقدر الرجال وأفضلهم ؟ ان قرارات وتصرفات مثل هذا الرجل لا بد وأن تكون فاضلة على شاكلته وهو بذلك يحكم الجماهير حكما يروق لها وتستحسنه ، بينما نجد أن احتياطاته ضد فاعلى الشر والمسيئين للدولة احتياطات أكثر تحفظا عنها في الدول الأخرى أما الأوليجركية فهي على العكس من ذلك . اذ عندما يتصارع الرجال ويتسابقون من أجل خدمة الدولة ، من المتوقع أن تولد عداوات وكرهية بين الانسان وأخيه ، فكل يتغنى أن يصبح زعيما ورائدا ، وأن ينفذ خطته ومذهبه . ومن هنا تنبع الخصومات التي تؤدي الى تصارع على ثم اشتباك دموى . عندئذ لا بد وأن يتبع تلك المرحلة حكم الفرد المطلق ، وهذا يبرهن أن هذا الشكل من الحكم أفضل بكثير من

أثينا . وقد أدرجهم الأثينيون فى زمرة مواطنيهم وفقا لشروط معينة حرموا بمقتضاها من بعض امتيازات لاستحق الذكر .

أما هؤلاء الفينيقيون الذين وفدوا مع كادموس والذين تنتمى اليهم عائلة الجيفيراين ، فقد جلبوا معهم فنونا شتى ، من بينها فن الكتابة الذى كان لا يزال اليونان جاهلين به حتى ذلك الوقت على ما اعتقد . وقد كان هؤلاء الوافدون يرسمون أحرف كتابتهم فى البداية مثل باقى الفينيقين . ولكن بمرور الزمن تغيرت لغتهم شيئا فشيئا ، وبالتالى تغير شكل أحرفهم . وكان اليونان الذين يقطنون حول ذلك المكان فى ذلك الوقت هم الايونيين ، فاستخدموا الأحرف الفينيقية ولكن مع تغيير أشكال أحرفها حتى وصلت الى شكلها الحالى وهى من باب الانصاف لا زالت تسمى « الأحرف الفينيقية » وذلك لتنسبها لأول من جلبوها الى أرض اليونان .

الأشكال الأخرى . أما الديمقراطية فلا بد وأن تخلق طبقة انتهازية ، ومع هذا لا تخلق هذه الانتهازية عداوات ، بل تؤدي الى خلق صداقات وتكتلات بين أولئك المنتهزين الذين يتكاتفون ليضمنوا سريان سياستهم وتحقيق رغباتهم ويستمر الوضع على هذا الحال الى أن ينبثق رجل وطنى وبصبح بطلا قوميا ، ويطيح بهؤلاء الأشرار . فيستحوذ فاعل هذا العمل المجيد على اعجاب الجميع وتقديرهم ، ويتطور هذا الاعجاب الى تنصيبه حاكما أوحدا . وهذا أيضا يوضح أن الحكم الفردى أصلح أشكال الحكم وآخرها تطورا . وأخيرا لكى ألخص ماقلته فى كلمة قصيرة ، على أن أتساءل ، من أين حصلنا على حريتنا التى تتمتع بها ؟ هل منحنا إياها الديمقراطية أم الأوليجركية أم حكم الفرد ؟ فطالما أن من أعاد لنا حريتنا هو فرد واحد (قورش) ففى رأى أن تتسك بحكم الفرد بل وبصرف النظر عن ذلك ، علينا ألا نغير من قوانين وعرف أجدادنا طالما هى تخدم الصالح العام .

الكتاب السادس فقرات ١١٢ - ١١٣ ، وصف

معركة «ماراثون»

« وعندما اصطف الجيشان ، وكان بشائر القرايين مطمئنة ، ما ان صدر الأمر حتى اندفع الأثينيون يعدون نحو الاعداء لينقضوا عليهم . وكانت المسافة بين الجيشين أقل من ميل بقليل ، لذا ما ان رأى الفرس اليونان يعدون نحوهم بكل قوتهم استعدادا للقائهم ، وان بدا لهم أن الأثينيين قد فقدوا عقلهم وعقدوا النية على قتل أنفسهم ، لأنهم رأوا حفة من الرجال تجرى نحوهم مندفعة بلا فرسان أو رماة . هذا ما اعتقده الفرس . أما الأثينيون فقد انقضوا عليهم ، وحاربوا بشجاعة

الكتاب الخامس فقرات ٥٧ - ٥٨ يتحدث

هيرودوت عن مقتل الطاغية هيبارخوس على يد قوم يسمون الجيفيراين ، ثم علاقة هؤلاء القوم بالفينيقين وتاريخ الأبجدية اليونانية .

« أما عائلة الجيفيراين ، التى منها قتل هيبارخوس فقد وفدت من اتريا كما يدعى أعضاؤها . ولكن واتضح لى بعد بحث ودراسة أنهم فى حقيقة الأمر فينيقيون ، ينحدرون من أولئك الفينيقين الذين وفدوا مع «كادموس» الى ما يسمى الآن بمنطقة « بيوتيا » ، وقد حصل هؤلاء الجيفيراين على ضاحية «تانا جرا» كنصيب لهم حيث استقروا فيها فيما بعد . وعندما طردهم أهل «بيوتيا» لجأوا الى

جديرة بالثناء والمديح ، فقد كانوا أول يونان حسب معلوماتي ابتدعوا عادة الهجوم على العدو عدوا ، كما كانوا أيضا أول من وافته الشجاعة لتعلو عيناه قلنسوة الفرس ، اذ كان اسم الفرس حتى ذلك الوقت يلقى بالرعب والخوف في قلوب اليونان .

وحارب الجيشان في ماراثون لوقت طويل . ففي قلب المعركة حيث كان الفرس والسكاي يحاربون ، انتصر الفرس واخترقوا صفوف اليونان وطاردوهم الى داخل المنطقة . أما في الجناحين فقد قهر

الاثينيون وأهل بلاتيا العدو . وما ان قهروه حتى تركوا الفرس المنهزمين يهربون ، ثم انضم الجناحان ليصبحا جناحا واحدا وانقضوا على العدو الذي اخترق قلب جيشهم ، وهزموه شر هزيمة ، وقد فر هؤلاء الفرس أيضا ، غير أن الاثينيين تصيدوهم وقتلوهم ، وطاردوهم حتى شاطئ البحر حيث استولوا على السفن وصرخوا يطلبون النيران لبحرقوها .

فاروق فريد